

# التصوف: روحانية ومواطنة



FONDATION POUR  
L'INNOVATION  
POLITIQUE  
*fondapol.org*

[www.fondapol.org](http://www.fondapol.org)



باريزا الخياري

التصوف :  
روحانية ومواطنة

ترجمة  
عبد الحق الزموري

جوان 2015

مؤسسة التجديد السياسي (Fondapol)  
هي مركز بحث وتفكير (ثنك تانك)  
ليبرالي تقدمي أوروبي

نيكولا بازير: رئيسا  
غريغوري شرتوك: نائب رئيس  
دومينيك رايني: مديرا عاما  
لورونس باريزو: رئيسة المجلس العلمي والتقييم

تنشر المؤسسة هذا الكتيب في سياق اهتمامها بالتقييم

المستشار العلمي لسلسلة قيم الإسلام هو عالم الإسلاميات في جامعة  
سترابورغ إيريك جوفروا

العنوان بيد الخطاط راني روابح





## حاشية على المتن

لأن هذه المساهمة كُتِبَتْ قبل المأساة التي حَلَّتْ بـ"شارلي هبدو"، فقد رأيتُ من الضروري إضافة ملاحظات حول هذا العمل الوحشي غير المسبوق. إن قتل جميع الفريق العامل في "شارلي هبدو"، وخاصة من بين أشهر المحررين، مشفوعا باغتيال شرطيين واحتجاز أربعة فرنسيين ثم قتلهم، لمجرد أنهم يهود، في سوق يحترم التعاليم اليهودية بضاحية فانسان، أيام 7 و 8 و 9 جانفي 2015 من قِبَل ثلاثة فرنسيين، يحمل توقيع إرهاب جهادي:

- مثير للفتنة = إغتيال ممثلين للقوى الأمنية؛
- سَفَّاح = الهجوم ضد صحيفة ساخرة؛
- مُعادي للسامية = اختطاف رهائن في سوق يهودي؛

ويندرج ذلك الهجوم في صياغات نمطية مثالية جدا: طفولة بائسة، انحراف صغير أو إجرامي، تشدد ديني زاده الوسط السجني بُعدا إجراميا، علاقات مع منظمات جهادية في الخارج. ولكن جينيالوجيا الشر تلك مُبتسرة جدا أمام تنوع سير الطامحين الجهاديين الذين سنتحدث عنهم لاحقا. ويبقى تحليل ذلك الإرهاب الغربي الذي يتبنى الإسلام مطلوباً. حقيقة

يقينية واحدة تبرُّزُ لنا الآن: إن تفسير ما حدث  
بالسياق المحلي الفرنسي غير كافٍ.

وفي مقابل ذلك، فإن التعبئة العامة المشهودة التي  
عرفها الشعب الفرنسي في الأيام التالية للساعات  
السوداء تنخرط تماما في التاريخ الوطني، وفي التمسك  
غير المتزعزع بالحرية، وخاصة منها حرية التعبير.

فجأة، يوم السابع من جانفي، قبل منتصف النهار  
بقليل، استعاد المعنى والقيمة والفضاء الذي تتحرك  
فيه مبادئنا الجمهورية، مركزيتها الكاملة في وجودنا.  
إن التكريم التاريخي الذي عرفته أمة بكاملها يوم 11  
جانفي كما هو حامل للأمل، فهو باعث على القلق  
أيضا. وإذا أردنا لهذه الرجّة الإيجابية الدوام فلا بد  
على كل واحد منا، إلى أيّ جهة انتمى، أن يقوم  
بمجهود اختبار وعيه قبل أن يتكلم من جديد.

ولعل هذا النص يساهم في معرفة أفضل بأحد أبعاد  
معجزات الإسلام، في أعين الفرنسيين الذين يدينون  
بالإسلام كما في أعين كل أبناء وطني. كما أرجو أن  
يساهم نصي أيضا في معرفة أفضل بالدنيانية المؤسسة  
لأوالية المواطنة على الهوية، وهي حجز الزاوية في  
مجتمعنا.

## التصوف: روحانية ومواطنة

### باريزا الخياري

عضو مجلس الشيوخ عن مدينة باريس  
(النائب الأول لرئيس مجلس الشيوخ سابقا)

أصبح الإسلام في السنوات الأخيرة مسألة سياسية بامتياز. وقد تضاءل بُعده الديني والروحاني لحساب الجدل العقيم. وفي ظل ذلك النشاط، كانت الأصوات الوحيدة الذي ظهرت في الإعلام هي أصوات الظالمين من جهة، والمصابين بمرض الخوف من الإسلام (إسلاموفوبيا) من جهة أخرى، وذلك في عملية توظيف ناجعة جدا للمزايدات والمشروعية المتبادلة. بسرعة أصبح الحجاب نقابًا. ولمدة طويلة تركز الجدل في فرنسا حول مسألة الظهور (أن تكون مرثيا) في الفضاء العام. ومن هذا التفعيل المزوج برزت صورة مشوهة للإسلام فوق السطح، سواء داخل المجتمع ككلّ أو بالنسبة للمسلمين أنفسهم. وتشهد كل الاستبيانات حول الموضوع عن الريبة المتنامية للشعب الفرنسي تجاه المسلمين، انعدام ثقة تضاعف منذ تفجيرات 11 سبتمبر. ففي تقريرها

السنوي لعام 2013، أثارت اللجنة الوطنية الاستشارية لحقوق الإنسان (CNCDDH) "تنامي التعصب ضد المسلمين"، وتحدثت عن أن "الاستقطاب ضد الإسلام هو الأكثر تواترا والأكثر تجذراً". كان شعور الريبة في السابق متواريا، وأصبح يعبر عن نفسه اليوم بكل وضوح. وقد تحوّل الجدل حول الهوية الوطنية،<sup>1</sup> تحت ذريعة حرية التعبير، إلى متنقّسٍ واسع للإسلاموفوبيا، ما استفزّ جيل بيرنهام في Gilles Bernheim، وهو حينئذ الحبر الأكبر في فرنسا، ليقول معتذراً: "أصبح من الصعب شيئاً فشيئاً أن تكون مسلماً في فرنسا"، واصفاً "مجتمعا يبحث عن شئاعة هو مجتمع مريض جداً". وبالنسبة للبعض اليوم، فإن الإسلام قد يكون متضارباً مع الجمهورية. لا شك أنه يمكننا تنسيب تلك التحليلات والتأكيد بأنها تعبر عن مخاوف مجتمع في قلب أزمة اقتصادية واجتماعية وأخلاقية. يمكننا أيضاً تفسير كيف يستفيد الشعبويون من تلك البلبلة الجماعية، أولئك الذين

---

<sup>1</sup> هذا "النقاش" الكارثي الذي أطلقه إيريك بيسون في ربيع 2010، عندما كان وزيراً للهجرة والإدماج والهوية الوطنية والتنمية المتضامنة، تضاءل إلى مستوى مجرد "اجتماعات" يعقدها رؤساء المحافظات.

يمنعون كل تفكير ويستغلّون المخاوف لحسابات انتخايبية. وتوجد بعدد كتابات وافرة حول القلق الثقافي وعلاقات الأزمة الاقتصادية بالانكفاء الهووي. ولكن تلك التحليلات السوسولوجية - وبعضها مثير، ولكن أخرى لا تتجاوز السجلات البسيطة - تغض الطرف عما لا تراه.

تهدف هذه المساهمة إلى تحريض أصحاب القرار الحكومي ومراقبي الحياة الاجتماعية والسياسية على توسيع مجال اهتمامهم وشحن نظرهم. لا بد، في بلد يمثل الإسلام الدين الثاني فيه، من اقتراح تأطير أكثر دقة سواء من جهة الحقيقة الاجتماعية أو من وجهة نظر الآفاق السياسية. تلك هي المهمة التي تتبناها هذه المقاربة: ليس النقاش في معرفة ما إذا كنا مع الإسلام أو ضده، ومع المسلمين أو ضدهم، بل تتمثل الأولوية المطلقة في إعادة إقامة شروط الوجود لجمهورية هادئة. ولأنني أرى الخطر المحدق بنظامنا السياسي، قررت - كممثلة للسيادة الوطنية، وقوية بالإرث الذي أحمل - المساهمة في الجدل الدائر، انطلاقاً من حديثي عن الإسلام.

وبعيداً عن التمييز بين التشيع والتسنن يوجد طريقتان أساسيتان يعيش بهما المرء إسلامه:

- الطريق القانوني، ويكون فيه الإيمان مقنناً بشكل صارم من قبل العقيدة، وهو طريق يتبعه غالبية مسلمي فرنسا

- الإسلام الصوفي، ويتميز باتباع العقيدة، ولكن أيضاً بمجاورتها إلى الروحانية، وهو طريق أقلية من مسلمي فرنسا.

إن الإسلام الصوفي، في فرنسا كما في غيرها من بقاع العالم، إسلام روحي منظم في طرق متعددة الأشكال الدينية. يقول إيريك جوفروا: "المتصوف لا يرفض الشريعة إطلاقاً، ولا طقوس الإسلام. هو على العكس من ذلك يُبهرها من الداخل، مجدداً للمؤمنين معانيها باستمرار".<sup>2</sup> والطريق الصوفي غير معروفة خارج الفضاء الإسلامي بشكل واسع، وهو مهمّش منذ زمن بعيد من الأرثوذكسية الإسلامية. التصوف هو الزاوية الميّنة في الخطاب حول الإسلام. وإلى جانب إسلام الشريعة والإسلام الروحاني، ولّد العالم الإسلامي، مدفوعاً في ذلك باستراتيجيات مخفوفة بالمخاطر للقوى العظمى الغربية، إسلاماً راديكالياً، تشعّب في طوائف أصولية ومجموعات إرهابية هدفها

<sup>2</sup>) Éric Geoffroy, *Le Soufisme. Voie intérieure de l'islam*, Seuil, coll. « Points », 2009, p.9.

الأول إحداث الفتنة والفوضى. وهي تدعي الارتكاز في أفعالها إلى الإسلام، الذي ترفع رايته لتبرير جرائمها. وتُحاول تلك المنظمات إقامة مشروعياتها على القرآن المُحرّف عن رسالته. يكمن المشكل، بحسب الشيخ خالد بن تونس، في كون "القديسين والمجرمين يعودون إلى نفس الكتاب. يتدارسه البعض، ويوظّفه البعض الآخر".<sup>3</sup> ولكن الرأي العام الغربي غالبا ما ينسى، في خضمّ وضع الإسلام موضع الاتّهام، أن الضحايا الأول لذلك الإرهاب ما بعد الحرب الباردة هم المسلمون بالأساس.

جميل أن يندد أهل الشريعة والمتصوفة بأولئك، وأن يؤكّدوا شجبهم لتلك الأفعال المشينة المرتكبة باسمهم، ولكن المعركة الكلامية والإعلامية قد فاز بها لحد الآن الظالميون.<sup>4</sup> إن هذا التشدد هو طرف النقيض للرسالة القرآنية. فهو ينشر أيديولوجية قائمة على الالتجاء إلى العنف، بحسب آلية هي نفسها تلك التي

<sup>3</sup>) Cheik Khaled Bentounès, « L'État islamique mène une croisade contre l'humanité », interview, *Jeune Afrique*, 8 octobre 2014

<sup>4</sup>) في شهر نوفمبر 2001، كتبت الصحافية كاترين بوتافين *Catherine Poitevin* في عدد خاص من مجلة *Télérama* مقالا تحت عنوان "لنفهم الإسلام": "دخلنا عصر الريبة الإسلاموفوبي [...] شكّ لا يُطفئه الإجماع حول التنديد بالإرهاب".

كانت فاعلة في النصرانية. لقد حان الوقت لاقتراع قناع القداسة عن البربرية، الذي يريد الإيحاء بأنه التعبير عن المتعالي.

أصبح الإسلام، عملياً، رهينةً لدى فصائل متواطئة عديدة. فالإرهابيون يستعملون تلك المرجعية كغنيمة حربٍ للاستثمار، والشعبيون ككبش فداء ملائم جداً. كيف يستطيع المسلمون، بل كيف يجب عليهم، أن يتصرفوا، في تلك الحالة لاستعادة هويتهم وتقديرهم لذاتهم ونحن ندعوهم باستمرار للشجب والتبرير، بل ولنكران ذواتهم حتى؟

في عالم إسلامي مريض، هل يمكن أن يمثل الطريق الصوفي والرسالة الصوفية بديلاً حقيقياً؟ صحيح أن جوهر التصوف ومبادئه، بالنظر خاصة إلى أعمال بعض كبار مشايخ الطريقة، تبين كيف أن التصوف يمكن أن يفرض نفسه عنصرَ تهديّة في الجدل الفرنسي، وتوجّهًا لمواطنة نشيطة. وحتى يكون لهذا الخطاب من معنى لا بد في البدء أن لا تنسى الجمهورية هي نفسها المبادئ المؤسسة لها.

سيحاول القسم الأول من هذه المساهمة تقديم مقاربة عامة للتصوف، نتطرق بعدها للتوترات المرتبطة بالإسلام في السياق التاريخي الفرنسي، ثم تفرض



مسألة تجريد الإسلام من التوظيف نفسها كضرورة لممارسة مواطنة نشطة. وفي الأخير، سننظر كيف أن مثقفين مسلمين، ذوي توجهات صوفية وعلى وعي تام بالرهانات القائمة، قدّموا أنفسهم بشكل عفوي ودون ضجيج كـ"وسطاء" في النقاش الفرنسي.

### في معنى التصوف

كثيرة هي الكتابات المعاصرة، وغير البريئة أحيانا، التي تناولت الإسلام، ولكن القليل فقط تعرض منها للتصوف، خاصة وأن الطريقة لم تكن معروفة إلا للمتخصصين، أو للجمهور العريض من خلال تظاهرات مشهورة، كتلك المتعلقة بدراويش المولوية. تحمل التخريجة الاصطلاحية هنا مصلحة خاصة: التصوف، في أحد معانيه، يعود إلى الـ"الصفاء"، ويُرمز به إلى النقاء الشفاف. يكون التصوف إذاً توجّهاً مصقولاً للإسلام، تغمره النقاوة. وفي معنى ثاني يرتبط المصطلح بعبارة "أهل الصّف"، أي أصحاب الصفوف الأولى، وأكثرهم بركة في الجماعة المسلمة. ويحيل هذا المصطلح على الزمن الأول للإسلام، ارتباطاً بالصوفية الذين كانوا ينزلون في مسجد النبي بالمدينة، والذين وصفهم القرآن بـ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ

رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»<sup>5</sup>. وإذا أخذنا بهذا التأويل، كان علينا القول بأن المتصوفة هم الأقرب للإسلام الحقّ. في زمن يدّعي البعض الانتماء إلى السلف،<sup>6</sup> أي إلى إسلام الأصول حسب زعمهم، تكون قيمة ذلك المعنى الاصطلاحي في إثارته للجدل وتحريضه بعض المؤمنين على طرح السؤال.

هناك أيضا معاني اصطلاحية أخرى، لعل أشهرها ذاك الذي يربط مصطلح التصوف بالصوف. وهو المعنى الذي ذهب إليه ابن خلدون،<sup>7</sup> المؤرخ الكبير للمجتمعات المسلمة. كان المتصوفة يرتدون ثيابًا من صوف، وهو لباس الفقراء، تواضعًا ورفضًا للكبر وللرُضى عن الذات. فَرَضِيَّةٌ أخيرة تُعيد مصطلح

#### (<sup>5</sup>) سورة الكهف؛ آية 28

(<sup>6</sup>) السلفية حركة سنّية تُنادي بالعودة إلى إسلام الأصول. وهي اليوم حركة أصولية مركّبة، تتكوّن بالأساس من تيارات سياسية وجهادية، وتشترك جميعا في كونها تقدّم نفسها امتدادًا لإسلام القرون الأولى. وبهذا المعنى يكون من المهم الانتباه إلى أن كلمة "سلف" تعني اصطلاحيا "السابقة" أو "الأوائل"، ويُقصدُ بها صحابة النبي محمد (ص) والجيلَيْن اللّاحِقَيْن.

(<sup>7</sup>) من أبرز وجوه بلاد المغرب في القرن الرابع عشر، وهو يُعتَبَرُ أحد رواد علم التاريخ المعاصر. ندين له بكتاب "المقدمة"، وهو مدخل للتاريخ الكوني وللسوسيولوجيا المعاصرة. له أيضا كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر.

صوفي إلى أصلٍ من خارج اللغات السامية: *sophia* اليونانية، أي الحكمة. الصوفي إذًا هو الحكيم، القادر على إدراك حقيقة الرسالة الإلهية، وعلى استلهاها الجوهر منها.

سنحتفظ من هذه التعريفات المتعددة بصورة متصوّفٍ منخرط تماما في ذكاء مزدوج: ذكاء التجريد عبر التأمل، وذكاء الفهم التام للواقع. تؤكد إيفا دو فيتراي مياروفيتش *Eva de Vitray-Meyerovitch* (ت. 1999) أن: "التعريفات المقترحة من شيوخ التصوف الكبار ليست سوى مقاربات، فعدد الـ "طُرُق" بعدد السالكين، ولا تُدرك النفس إلا ما هي مؤهلة لإدراكه".<sup>8</sup>

### التصوف: طريق للسلوك صارمة بقدر ما هي مجهولة

يأسف الشيخ بن تونس، رأس الطريقة العلوية التي تعرف حضورا لافتًا في أوروبا، والمؤسسة للكشافة الإسلامية في فرنسا، للضبابية الحالية: "التقليد الصوفي غير معروف، وهو يثير عديد التساؤلات مثل تلك

<sup>8</sup>) Eva de Vitray-Meyerovitch, *Anthologie du soufisme, spiritualités vivantes*, Albin Michel, coll. « Spiritualités vivantes », 1995, p.22

المتعلقة بالعلاقة بين التصوف والإسلام على سبيل المثال. الانطباع الحاصل في الغالب هو أننا بإزاء شيئين مختلفين، في حين أن التصوف لا يعدو كونه الطريق الباطني في الإسلام. يمكننا القول إن الإسلام هو الجسد، والتصوف هو القلب".<sup>9</sup>

تدرّج بناء التصوف مع تطور تاريخه. ويمكننا القول، من خلال تتبع رسم زمني غير مثالي، إن التصوف في بداية الإسلام كان في ممارساته تعبيراً عن الزهد؛ ثم تطورت تعبيرته لتصبح شيئاً فشيئاً أكثر باطنية (القرن العاشر). ولاضطراره إلى إخفاء بُعد "الباطني" عن العامة لأسباب سياسية، تطور التصوف في الشكل الطُرقي، وتنظّم حول الشيخ، في حين تدعّمت عقيدته شيئاً فشيئاً حول نصوص شعرية وباطنية كبرى، وتمرينات روحانية. وواصلت الطرق الصوفية تمددها في شكل حركات جماهيرية واسعة أحياناً، كما الحال في آسيا الوسطى أو في البلقان، أو بشكل هامشي في فضاءات جغرافية أخرى.

وبعيداً عن اختلاف المعاني الاصطلاحية والخصوصيات المحلية، فإن التصوف يُجبل على الإرادة

<sup>9</sup>) Cheikh Khaled Bentounès, *Le Soufisme coeur de l'islam*, Pocket, 1999, p. 48.

في التوصل إلى حالة قصوى من الروحانية. ويذكر الجُنَيْد،<sup>10</sup> شيخ الصوفية في بغداد، في صيغة بلاغية موجزة أنّ "الماء يستمد لونه من الإناء الذي يحويه"، أي أنه لا وجود لطريقة مهيمنة، وبالتالي على السالك الكشف بنفسه عن الحقيقة. وبحسب أريك جوفروا، فإن تلك الصورة: "تعني أنه لا وجود إلا لدين أصلي واحد [الماء]، وأن هذا الأخير ظهر في تلوينات متعددة طَبَقًا للسياقات".<sup>11</sup>

وفي ظل غياب تعريف حصري للتصوف، فإن هذا الأخير ليس عقيدة خاضعة لمعيار محدد، كما أنها ليست عقيدة معيارية، بل طريقة في السلوك الصارم. ولا معنى للبحث الروحاني إلا إذا عبّر عن نفسه في تقلبات الحياة اليومية. يقول الأمير عبد القادر (ت. 1883): "صحرائي هي الحشد من الناس".<sup>12</sup> يصبح التصوف إذًا تطبيقًا عمليًا (براكسيس): وجب على الروحانية إيجاد تعبيرة في الحياة المادية. وفي هذا المجرى

---

<sup>10</sup> يُعْتَبَرُ أبو القاسم الجُنَيْد البغدادي (ت. 911)، وهو أحد الوجوه البارزة في الروحانية الإسلامية في القرن العاشر، أحد أقطاب التصوف

<sup>11</sup> ) Éric Geoffroy, *op. cit.*, p. 281

<sup>12</sup> ) Kebir M. Ammi, *Abd el-Kader*, Presses de la Renaissance, 2004, p. 67.

بالذات ما برح التصوف يُزعج النظام القائم. فقد قامت الأرثوذكسية، في سياق الصراع حول الشرعية وفي سعيها إلى احتواء التطلع نحو الحرية، بقمع الممارسات الصوفية. حُكِمَ على الشاعر الصوفي الحلاج (ت. 922)<sup>13</sup> بالإعدام بتهمة البدعة، بعد إعلانه، في لحظة شطْحٍ: "أنا الحقّ". وقد حوّلت هذه الحادثة، وهي موقعة أساسية في تاريخ العلاقات بين المتصوفة والحكّام، الحلاج إلى "شهيد التصوف". بل إن أحد أكبر المستشرقين عندنا، لويس ماسينيون (ت. 1962)،<sup>14</sup> قد جعل تلك العبارة موضوع رسالته للدكتوراه وعنوانا لها. وعلى إثر استشهاد الحلاج، انخرط التصوف في سلوكٍ "مُعْثَلَن". يمكننا القول إن التصوف أخذ الطابع "الأكاديمي" بتركيزه على مراجع فكرية كبرى، وعلى بناء منهج وعقيدة. وكان الجُنيد، وهو يقترح الصراط الوسط، طريقة رصينة في السلوك

<sup>13</sup> منصور الحلاج، شيخ صوفي ذي أصول فارسية. ترك مدونة شعرية كثيفة، وبحث عن إعادة وصل الإسلام بالأصل الصافي للقرآن. كان متبرِّمًا بالتعليم التقليدي للإسلام، مائلًا إلى حياة التزهد، ما دفعه إلى الاقتراب من التصوف. وعندما عاد إلى بغداد، أُنِّم من قبل السنّة والشيعية في آن لأجل آرائه في التصوف ولتأثيره في الجماهير. قام لويس ماسينيون بترجمة شعره إلى اللغة الفرنسية.

تميل إلى الصفاء على حساب "الشكر"، أبرز مهندسي هذه النبرة. وقد لاقت طريقة الجنيد السالك قبولاً لدى عقيدة المذاهب الفقهية السنية الأربعة المشهورة: المالكية والحنبلية والشافعية والحنفية. وهي اليوم مُتَّبَعَةٌ من أغلب الطرق الصوفية الكبرى.

### الطريقة الصوفية: أخوية إسلامية

تاريخياً، كان الإسلام الأرثوذكسي دائم الارتباب من التصوف. ولو كان هذا الأخير جماعة منزوية، تعني فقط بالحياة الروحية وبمحاورة الألوهة، على صورة المجموعات الرهبانية المسيحية، لكان التهديد مختلفاً. ولكن المتصوف لا يبحث عن الانسحاب من العالم؛ هو، على العكس من ذلك، يبحث عن التجدرّ فيه، وعلى المشاركة النشطة في شؤون المدينة وفي الحياة المادية ما يجعل منه فاعلاً مطالباً بوضع بحثه الروحي في خدمة الآخرين.

إضافة إلى أن التصوف "مدرسة" تقوم على تنظيم في غاية التقنين: يقود الطريقة شيخ، وتحتوي على عدد من الزوايا،<sup>15</sup> وهي الفضاءات التي يلتقي فيها أتباع

<sup>15</sup> كانت الزاوية في البداية ركناً في المسجد يتخذها الشيخ لتعليم الأتباع تعاليم السلوك؛ أما اليوم فإن المصطلح يعني المركز =

الطريقة والمنضوين تحتها. يدير الزاوية مسؤول يطلق عليه "مُقدِّم"، ويكون قد لبس الخزقة. ويوجد في كل زاوية أصحاب يهتمون بشؤون الأتباع. أما التعاليم الضرورية فترتكز إلى القرآن والسنة. وهو تعليم ينحرف في تراث قُطِبٍ يعيد إليه الروح، وبيئته معلم مرّي، هو شيخ الطريقة. يتوفر ذلك التعليم الروحي في صيغٍ ثلاثة كبرى: العبارة والإشارة والرمز. وبحسب المتصوف المغربي ابن عجيبة (ت. 1809)، فإن "العبارة تُوضِّح، والإشارة تُلوِّح، والرمز يُفْرِح". ويخضع أعضاء الطريقة - السالك في الطريق أو المرید - إلى قواعد حياة وسلوك. ولا بد أن نشير هنا إلى أن الصوفي الحقّ هو من يبلغ حال التحقق الكلي لا من يسلك طريق ذلك الحال، فهذا مرید بسيط ينطبق عليه اسم المتصوف، أي السالك.

أما الشيخ، صاحب اليقظة وطيب الروح، فهو من يعلم المسلمين مبادئ التصوف في الطريق الطويل على درب السلوك. وقد قارن جلال الدين الرومي (ت. 1273)<sup>16</sup> الإنسان بـ"البرزخ ما بين النور والظلام".

---

= التنظيمي والروحي للطرق الصوفية.

<sup>16</sup> (جلال الدين الرومي - الذي يحمل اسمه رمزية كبيرة - متصوف فارسي أثر بشكل عميق في التصوف



تصف هذه الصورة الوضعية الإنسانية الممزقة بين الرغبة الترجسية والرغبة في التسامي. وبعثباره مبدأً للتسامي الروحي، فإن التعليم الصوفي يتركز إلى فكرة أن السالك لا يمكن تركه وحيداً في مواجهة النصوص المقدسة ولا في مواجهة نفسه. وينخرط تدريب المُريد على استعمال النصوص وعلى التساؤل الروحي في سياق تعليمٍ تغلب عليه الشفوية، ويدور ضمن نقاش جماعي داخل الطريقة. يُغذّي المتصوفة العقيدة بمقاربة وممارسة باطنية للإيمان، مستنيرة بالفنون وبالمعرفة.

وفي هذا الصدد لا بد من التذكير بأن أولى التعاليم التي أمر بها القرآن: ﴿أَفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾<sup>17</sup> والتي تتغنى بالمعرفة. وقد قال الشيخ حمزة القادري، وهو من مشايخ الصوفية الكبار الأحياء<sup>18</sup>: "عرفت الحضارة الإسلامية عصرها الذهبي الموشى

<sup>17</sup> (سورة العلق؛ آية 1. وهي أول آية من القرآن نزلت على محمد (ص)

<sup>18</sup> (يُعتَبَرُ "الشيخ الحي" في التصوف "ورثاً محمدياً" بمعنى أنه تمكن من أن يرث "السّر الروحي" للنبي (ص) [ويسمى كذلك لأنه يتموقع في مستوى يفوق الوصف، ولا تحيطه العبارة المتداولة]، كما أنه "كُلِّفَ" هو نفسه عبر مصدر متعالي، إلهي، من جهة وعبر شيخه المباشر الذي يؤكد بذلك صحة وثبوت ذلك التكليف.

بالابتكارات في مجالات عدّة، وخاصة العلمية منها. ولا أحد يشكك تلك الإضافة للحضارة الكونية. أما اليوم فالغرب هو من يبتكر. وقد جعل الله من الغربيين، وهم إخواننا في الله، لطفًا ورحمة للمسلمين بسابقتهم في التقدم، وبما يقدمونه لنا من خير في مجالات الصحة والنقل والتكنولوجيات الحديثة. لا بد من إكبار هذه الفتوحات، ولتشريف ماضيها لنسارع بتقديم إضافتنا إلى الاكتشافات العلمية القادمة".<sup>19</sup>

غالبًا ما يُعتبر التصوف في الغرب إضافة للروح، ودلال النخبة، أي أحد الخيارات التأملية، الدماغ العذب والمحبذ للإسلام، في حال لم يُصنّف خارج دائرة الإسلام، كبدعة توليفية بين الأديان. كما يقدّم أيضا كجماعة عالمة ذات طبيعة تقارب الغرابة أو غامضة. وتُسوّق هذه الصورة "العصرانية" عبر المشنّعين على التصوف. الهدف بالنسبة لهؤلاء هو تشويه الطريقة الصوفية وأتباعها، وضرب مصداقيتها.

وفي الحقيقة، فإن مسار السلوك يصل بالمرید إلى التسامي الروحي عبر الصرامة الأخلاقية وأعمال الخير التي يقدّمها للآخرين، رغبةً في بناء أحوّة كونية. وكان

<sup>19</sup> مقتطف من حوار شخصي أجريته مع سيدي حمزة في جانفي

الصوفي المشهور عبد القادر يردد دائما المَثَل القائل:  
 "احمل على نفسك همّ الآخرين". يتمحور التعليم  
 الصوفي حول بناء مريدٍ منفتح على الآخرين وعلى  
 الكون. يؤسس هذا المبدأ للعلاقة مع الإخوان ومع  
 الله، ويزيد من صلابتها، سواء عبر الصُحبة مدّة  
 التعليم، أو الأخلاق الخصيصة بالتصوف، وأخيرا  
 الأدب. وهذا المصطلح الأخير (*adab*) غير قابل  
 للترجمة [إلى الفرنسية]، وهو يُعْتَبَرُ ميزةً عُليا، تَجْمَعُ  
 التلطف، وروح الفرسان، والمعروف، تماما كما التعليم  
 الجيد والثقافة.

### التجديد المعاصر للثقافة الصوفية: طريق للتحرر

يحتفي المتصوفة بالدرس والفن والشعر والموسيقى؛  
 بالشعر لمحاولة الاقتراب من المتعذّر وصفه، وبالسماع،  
 الإنشاد الروحي، لبلوغ حال "الفطرة". وليس غريبا أن  
 يكون المتصوفة ضمن قائمة أشهر علماء الإسلام  
 وشعرائه، وأصحاب أعظم الأعمال الأدبية التي يجدر  
 معرفتها أكثر فأكثر. يمكننا على سبيل الذكر الإشارة  
 إلى "منطق الطير" للعطار<sup>20</sup> (ت. 1220)،

<sup>20</sup> فريد الدين العطار شاعر صوفي من بلاد فارس، له أعمال  
 عديدة منها كتاب منطق الطير

و"المثنوي" لجلال الدين الرومي، أو "الفتوحات المكية" لابن عربي<sup>21</sup> (ت. 1240)، وهو صوفي أندلسي مشهور، يسمّى أيضا بـ"الشيخ الأكبر". أما الفن فقد وضع في خدمة ذلك الهدف، وهو تحويل الإنسان.

ومنذ عشرين سنة، يجمع مهرجان الموسيقى الصوفية في فاس بالمغرب كل عام أكبر فئاني العالم، كما يستقبل جمهورا متزايدا في كل مرة.<sup>22</sup> ويمكننا المجازفة بالقول إن الطريقة الصوفية تشبه مراكز التفكير (*think tank*)، فهي تعرّف نفسها داخل خط يجد أصوله في الأزمان الأولى للإسلام. "مركز تفكير": لأن التصوف ينتج ذكاء وعلما ومعارف. يريد التصوف أن يكون طاقة تحويل، أو خميرة للإنسانية. التصوف نزعة إنسية. فمفهوم "مركز التفكير" ذاك يترجم عن نفسه كل عام في لقاءات تحمل معنى. ففي كل سنة تجتمع كبرى الطرق الصوفية في العالم في مدينة فاس، بمناسبة مهرجان الثقافة الصوفية، وتحت لواء الصوفي

<sup>21</sup> ابن عربي: مسلم من أصول عربية، ولد بأسبانيا، يسمّى بالشيخ الأكبر للروحانية والباطنية في الإسلام

<sup>22</sup> ) [www.fesfestival.com](http://www.fesfestival.com).

المغربي فوزي الصقلّي.<sup>23</sup> وبالتوازي مع هذا الحدث، يقع استدعاء شخصيات عالمية، إضافة إلى جمهور المهتمين، إلى تظاهرة "روح للعولمة". وبالمقابل، تنعقد مؤتمرات دورية في مستغانم بالجزائر، وهي المركز الأول للطريقة العلوية. وقد كان شعار المؤتمر الدولي للأنوثة من أجل ثقافة السلام في شهر أكتوبر من هذا العام (2014) هو "الكلمة للنساء".<sup>24</sup>

تتم تلك اللقاءات، وهي تسعى لتكوين مطابقة موازية للقاءات الاقتصادية الضخمة، بالرهانات الدولية المعاصرة. ولأن الإنسانية لا يمكنها الاكتفاء بكونها "قوة ذات شأن"، فإن مواضيع مرتبطة بالديمقراطية والاقتصاد والسلطة والتفاوت والتنوع والبيئة، تُطرح للنقاش، لا في خطابات تقنية، بل في علاقة بالتساؤلات الجوهرية للإنسان. وبعيداً عن سؤال "كيف"، فإن هذه اللقاءات تطرح أسئلة "لماذا"، حتى يصبح همّ مصير البشرية شأن الجميع. الكل يعمل، باللغتين الفرنسية والعربية بالأساس، على محاولة "ترويض" العولمة و"تحضير" الزمن الراهن.

<sup>23</sup> ) [www.festivalculturesoufie.com](http://www.festivalculturesoufie.com).

<sup>24</sup> ) [www.congres-international-feminin.org/medias/pdf/prg/programme\\_fr.pdf](http://www.congres-international-feminin.org/medias/pdf/prg/programme_fr.pdf).

لا يستعمل المتصوفة الإسلام، ولا يبحثون عن الانحراف برسالته لغايات سياسية، كما لا يسعون إلى فرض طريقة عوض أخرى في محاورة الله. "التصوف هو الحرية".<sup>25</sup> حرية في محاورة الإلهي، وحرية في العلاقة مع الآخر بشكل خاص. وإذا كانت العقيدة مهمّة على الدوام، فقد أضحت عنصراً يمكن تجاوزه لصالح الروحانية. وما فتى إسلام الشريعة، وهو مرتبط بالعقيدة، يعترض على التصوف ادّعاءً ذلك الذي يقاربه بأحد أشكال المعصية. النقد الكبير الآخر الذي تقدمه الأرثوذكسية الإسلامية يخص عبادة (التبرّك ب) الأولياء الصالحين، وهي خصيصة الإسلام الصوفي، وبعض جوانب البُعد التأملي الذي تأخذ به الطريقة الصوفية. ويُعترضُ على ذلك البحث الروحاني باعتباره انحرافاً نرجسياً، بل بحثاً أنانياً عن الخلاص الفردي، في حين أن المتصوفة، حسب رأيهم، يرفضون مخاطر الإيمان الذي يقتصر على العقائد والمستنزف من خلال ممارسات صارمة ودقيقة، وخاصة في شعرهم. لم تكن تلك الاعتراضات حديثة عهد. فمحاولة بعض نظريات الإسلام الانتصار الحرفية

<sup>(25)</sup> الهُجُوري، كشف المحجوب. بيروت، 1980؛ ص 239

الشريعة على حساب الروحانية قديمة، تماما كنزعة مقاومة التصوف الراض لتلك الانحرافات. وكما يذكر إيريك جوفروا "ففي لحظة كانت فيها النزعة القانونية بصدد اكتساح فضاء الإسلام، ذكر الغزالي<sup>26</sup> (ت.1111) بالتسلسل الهرمي للقيم في الإسلام؛ وأشار قبل قرون من ظهور الأصوليات المعاصرة إلى أن لهذا الدين رسالة روحانية قبل كل شيء".<sup>27</sup>

### المراة تساوي الرجل في الكرامة الروحية

لأن التصوف مركز تفكير إسلامي، ومدرسة "الرجل الأمين"، وقوة تعبئة ممكنة، فقد أصبح المنافس الأول للإسلام الراديكالي. وهو منافس خطير أيديولوجيًا لأنه تمكن في مسيرته التاريخية من إدراج مساواة المرأة للرجل، فكلاهما "أبناء وبنات اللحظة". يؤكد ابن عربي أن "الفحولة" الروحية لا ترتبط بالشروط البشرية البيولوجية. الباب مفتوح أمام النساء لبلوغ الكمال

<sup>26</sup> أبو حامد الغزالي متصوف سني، ذو أصول إيرانية، مشهور بنزعة زهدية عميقة، ويملك تكوينًا فلسفيًا صلبًا

<sup>27</sup> ) Éric Geoffroy, « Al-Ghazâlî: la Voie et la Loi », *Le Point Hors-Série*, Paris, Nov - Déc 2005, p. 78

يمكننا الاطلاع على ما كتب المؤلف في نفس المواضيع في: *L'islam sera spirituel ou ne sera plus*, Seuil, 2009.

الروحي، وبالتالي كل مراتب الولاية، بما فيها مرتبة القطب، وهي أرفع مستويات الروحانية الإسلامية. الصوفي مطالب بفعل الخيرات في هذا العالم الأرضي. "الحياة ليست قصيرة، ولكن الوقت هو من يطاردنا" كما تقول ملك جان نعمتي<sup>28</sup> (ت. 1993)، وهي ولية صالحة من متصوفة كردستان إيران (ويقع ضريحها في مُرتقى عملاق!). وبحسب نعمتي فإنه يحسُن التحرك حتى لا يتحوّل الطارئ الذي تمثله الحياة إلى فعلٍ متسرّع وغير مفكّرٍ فيه؛ إن زمن التأمل والتفكّر هو الزمن الضروري للعمل الصائب والصالح.

تؤثّر مكانة النساء وتعاليمهن في الإرث والسلوك الصوفيين على حداثة غالبا ما كانت مسكوتاً عنها. يمكننا ذكر رابعة العدوية<sup>29</sup> على سبيل المثال (ت. 801)، ويُطلَقُ عليها "أم الخير"، ولية من أولياء الإسلام، والمقدّمة بلا منازع في العشق الإلهي؛ هناك أيضا السيدة نفيسة<sup>30</sup> (ت. 823)، التي تُحصى

<sup>28</sup> نشأت ملك جان في عائلة تنتمي إلى الطريقة الصوفية "أهل الحق". وهي شاعرة باللغتين الكردية والفارسية، ويُطلَقُ عليها تسمية الشيخة جاني، أو ملك جان نعمتي

<sup>29</sup> رابعة العدوية زاهدة صوفية، صاحبة عديد القصائد

<sup>30</sup> كانت السيدة نفيسة تُعتَبَرُ ولية صالحة، وهي عالمة دين =



بالتبجيل إلى اليوم، وهي معروفة بطول الباع في الفقه. ولا تزال النساء في زماننا تلعبن دورا مهما في دائرة التصوف: ف"نور أرتيران"<sup>31</sup> وهي من أصول تركية، تحصلت على الإجازة لتدريس "المنثوي"، وهو التراث الروحي لطريقة الشيخ الأكبر [جلال الدين] الرومي. وهي حاليا شبيخة الطريقة المولوية. وسأكون مقصرا إذا لم أقدم آيات التبجيل والثناء لـ"إيفا دو فيتراي-مايروفيتش" التي تزوجت من يهودي بالرغم من نشأتها في تقاليد كاثوليكية، قبل أن تتبنى الإسلام عبر التصوف. وبفضل ترجمتها لنصوص أساسية من الأدب العربي والفارسي، تمكن العديد من مسلمي فرنسا، وأنا من ضمنهم، من الولوج إلى ثقافتهم الأم. وتستحق دوريس ليسينج<sup>32</sup> *Doris Lessing* (ت. 2013) التبجيل، وهي المتحصلة على جائزة نوبل

---

كبيرة، وكانت في نفس الوقت فقيهة ومتمكّنة من علوم الباطن والظاهر

<sup>31</sup> نور أرتيران هي رئيسة المؤسسة الخيرية "مولوي" [الصافيكان الجمعية العالمية المولوية للتربية و الثقافة باسطنبول = المترجم]

<sup>32</sup> دوريس ليسينج، المتحصلة على جائزة نوبل للآداب سنة 2007، هي كاتبة بريطانية تُقارب أعمالها الثرية جدا مسائل الصراع الثقافي، والخلافات الناشئة بين الأنانيات الشخصية المتنامية والمصلحة العامة.

للآداب، لأنها تعتبر أنه "لا ملجأ تذهب إليه إلا داخلك"، لأجل صحتها الطويلة للمتصوفة. تهدف الإشارة إلى بعض أولئك النسوة من بين أخريات إلى التذكير بأن التصوف لا يُدرَك بالقبول بدونية المرأة. وبذلك فقد تمكنت النساء من اقتراح مسالك للحكمة، وحصلن على الإتياع والإعجاب.

### التصوف: التزام دُنْيَاي تحفزه الروحانية

يُعتبرُ النبي محمد (ص) في أعين المسلمين رسولا مبلّغا كلام الله، كما أنه المنظم لشئون المدينة ومديرها. وقد أدار النبي المدينة عبر الإجماع ليجعل منها حاضرة متناسقة ومستقرة. فوضع دستور المدينة، ويقال له أيضا صحيفة يثرب، الذي عمل في ثلاثة وستين فصلا على تنظيم الحياة العامة بين مختلف الجماعات. كان الأمر يتعلق آنذاك بالجماعات الدينية حصرا.<sup>33</sup> ينخرط المتصوفة ضمن إرث المثال المحمّدي. وبخلاف الرؤية الراديكالية فإن التصوف لا يحاصر السالك، بل يحرره من الصور المشوّهة ليقترح عليه إيمانا أرفع.

<sup>33</sup> يثرب هو الاسم التاريخي للمدينة؛ وتعرّف تلك الصحيفة حقوق وواجبات المسلمين واليهود وبقية الجماعات القبلية العربية في الحرب التي تجمعهم بالقرشيين

التصوف مدرسة للحياة، تدريبٌ على وجود يتشكل من أفكار ومن سلوكات أيضا. والصوفي هو رجل المدينة قبل كل شيء، التي توفر له قيمها نشر الأخلاق الأساسية ومثالية التصرفات.

ولمقاربة تعريف التصوف لم يعد ممكنا الاكتفاء بالقول إنه تصوف تعليمي؛ ولا أنه تصوف ذو طبيعة إنسية؛ وإذا ما تجاوزنا التطبيق العملي فلا بد من إضافة كونه أيضا إلزام مدني.

ويمكن تأكيد هذا القول بواقعة حديثة نسبيا عرفها العالم الإسلامي. ففي المغرب، قام الشيخ حمزة زعيم الطريقة القادرية البوتشيشية،<sup>34</sup> قاطعا مع تقليد التحفظ المُتَّبَع لدى الطرق، بدعوة مريدي الطريقة إلى الظهور وإلى التصويت لفائدة الدستور الجديد. كان الاستفتاء الدستوري لشهر جوان 2011 يهدف إلى إقرار المساواة بين الرجل والمرأة، والاعتراف بيهودية المغرب، إلى جانب أشياء أخرى. لم يكن الرهان في تلك الاستشارة مصير الاستفتاء بقدر ما كان نسبة المشاركين في التظاهرات وفي العملية الانتخابية.

---

<sup>34</sup> تكونت الطريقة القادرية البوتشيشية على يدي عبد القادر الجيلاني في القرن الثاني عشر. وظهر الفرع البوتشيشي في منتصف القرن الثامن عشر، في الشمال الشرقي من المغرب

فالتيارات المرتبطة بالإسلام الراديكالي كانت قد دعت إلى مقاطعة الانتخابات. بذلك تمكّنت تلك الطريقة الصوفية من إظهار توسع تأثيرها، بما في ذلك في الشارع، وقدرتها على التعبئة، خصوصا في مواجهة أقطاب الراديكالية.<sup>35</sup>

**أبناء وبنات عصرهم: بعض وجوه التصوف البارزة**  
 يذكر الشيخ بن تونس بحق، أن "العالم الإسلامي عند مروره بأزمة خطيرة، ينتهي به الأمر دائما إلى الاستنجاد بالمتصوفة. فحضورهم يعزز العودة إلى الأصول، ويوفّر الاستقرار والانفتاح. ومهما اختلفت العصور، فكل شيخ يعيد إحياء ما كان أساسيا في الرسالة النبوية".<sup>36</sup>

يهدف التعليم الصوفي إلى تمكين الإنسان من التحرك كصاحب فكرة، ومن التفكير كشخص عملي. كثير من الشخصيات العظيمة في العالم الإسلامي تمثل هذا القول: منها على سبيل المثال الأمير عبد القادر، ومن

---

<sup>35</sup> كان الشيخ ياسين، وهو مؤسس وزعيم جماعة العدل والإحسان الإسلامية المغربية، يدعو إلى إقالة الملك وهو "أمير المؤمنين"، وإلى إقامة الخلافة.

<sup>36</sup> ) Cheikh Bentounes, *op. cit.*, p. 52

النساء لالة فاطمة نسومر، وكذا محمد إقبال، ومعاصر لنا القائد مسعود. كانت كل تلك الشخصيات بُحسَد القيم الصوفية.

نظّم الأمير عبد القادر مقاومة القبائل العربية والبربرية للاستعمار الفرنسي في الجزائر. ولذلك فقد اعتُبر أول أيقونة وطنية جزائرية. ولأنه كان وجهها من وجوه التصوف البارزة فقد انخرط بشكل كبير في الاهتمام بشؤون المدينة دون أن يغفل عن تعاليم الطريقة. كان شاعراً وفيلسوفاً، ألفَ عديد الكتب، وعرف كيف يحمل السلاح في وجه الفرنسيين عندما قدّر ضرورة الوقوف مع أهله. كما قام، باسم عقيدته الإسلامية، بحماية عدة آلاف من مسيحيي دمشق المهتدين وحمائهم من القتل؛ لم يكن له مع هؤلاء الرجال الكثير من المشترك، اللهم إلا الجوهرية: إنسانيتهم. وإذا سلّمنا بوجود قانون إسلامي، فالأمير عبد القادر يعتبر أن "قانون الإنسانية فوق القانون الإسلامي".<sup>37</sup> انطلاقا من هذه الروح، أطلق عدد من الشخصيات المسلمة منذ شهر جانفي 2011 نداء لتحسيس

<sup>37</sup>) Cité par Bruno Étienne, in *Abdelkader*, Hachette, coll. « Pluriel », 2012

الرأي العام بما يتعرض له مسيحيو الشرق،<sup>38</sup> قبل أن تتبنى الصحف الكبرى تلك القضية. المبادئ الصوفية هي ما كان يوجّه أعمال الأمير عبد القادر، الذي فرض ميثاقا للتعامل الإنساني مع الفرنسيين الذين أسرّهم. وهذا الميثاق هو الذي نجده مُضمَّنًا في مقدمة إتفاقية جينيف حول الأسرى. كان الأمير يحترم وعوده دائما، وهي خاصية أخرى يلتزم بها الصوفي، ما جلب إليه احترام القادة العسكريين من الفرنسيين. لنستشهد هنا بما قاله الماريشال بيغو (Bugeaud): "هذا الإنسان العبقري الذي لا بد للتاريخ أن يرفعه إلى نفس مستوى يوغرطة، شاحب الوجه، ويشبه كثيرا صورة المسيح المتداوِّلة".<sup>39</sup> وبعيد اعتقاله في قصر أمبواز، كتب الأمير عبد القادر نصًّا بديعًا عنونته "رسالة إلى الفرنسيين".<sup>40</sup> لم تتضمن الرسالة أي كلمة عتاب عن السلوكات المشينة التي

<sup>38</sup> باريزا الخياري ومارك شيسون هما صاحبا المبادرة التي أطلقها:

*Respect Mag* [www.respectmag.com/2011/01/12/signez-lappel-lislam-bafoue-par-les-terroristes-4758](http://www.respectmag.com/2011/01/12/signez-lappel-lislam-bafoue-par-les-terroristes-4758)

<sup>39</sup> جزء من رسالة الماريشال بيغو إلى الكونت مولي مؤرخة سنة

1837، أوردها فرنسوا ماسبيرو في:

*L'Honneur de Saint-Arnaud*, Seuil, 1995, p. 92

<sup>40</sup> Abd-el-Kader, *Lettre aux Français*, Phoebus, coll. «Libretto», Paris, 2007.

أتاها عدد من مُحاطبيّه، وخاصة من بين أولئك الذين لم يحترموا الميثاق الممضى بينهما. بل على العكس، اتخذ موقف الترفع ليسلط نظرة فوقية، متفحصةً عدم الفهم الحاصل بين الشرق والغرب، ولينبّه معاصريه من مخاطر قطع الحوار والانغلاق في اليقينيّات. أليس ذلك هو ما وقعنا فيه اليوم؟

أما لالة فاطمة نسومر (ت. 1863) فيُحتفلُ بها إلى اليوم كإحدى شخصيات المقاومة الجزائرية. وهي تنحدر من سلسلة صوفية طويلة، وتنتمي إلى الطريقة الرحمانية،<sup>41</sup> كما أنّها انقطعت تماما إلى التأمل. ويُعرفُ عنها أيضا اهتمامها بالحياة المدنية، حيث نظّمت في سنوات 1850 انتفاضة القبائل لمقاومة الوجود الفرنسي. وقد كَبَدَتْ قوات الماريشال راندون خسائر فادحة، وكان هذا الأخير يسميها "جين دارك بلاد جرجورة" ( *Jeanne d'Arc du Djurjura*). وقد مكّنتها سلطتها الأخلاقية ووعيها السياسي المبكر من الحصول على تأييد العديد من

---

<sup>41</sup> الطريقة الرحمانية هي طريقة صوفية تأسست سنة 1774 على أيدي سيدي المحمّد بوقُبرين في الجزائر. وفي الأصل كانت تلك الزاوية، وكانت تسمى الخلوّية، قد عرفت إقبالا شديدا إلى حدود القرن التاسع عشر، متمكّنة من التغلغل في شمال أفريقيا.

السكّان، وتكوين فرقة من الموالين. وقد تمكن الفرنسيون من إلقاء القبض عليها أخيراً، وتوفيت في المعتقل عن عمر لا يتجاوز الـ33 سنة. ولم تؤثر وضعيتها كامرأة في قدرات لالة فاطمة نسومر على الحركة، فقد تزعمت حركة المقاومة. وكانت محترمة سواء من قبل رفقاءها بسبب علوّ مستواها الروحاني، أو من قبل منافسيها بسبب فنونها الحربية. وكلمسة وفاء وإجلال، تمّ نقل رفاتهما، ورفات الأمير عبد القادر، إلى مربّع الشهداء في مقبرة العالية بالجزائر العاصمة.

أما القائد مسعود (ت. 2001)، الجندي الراهب، فهو متصوف منخرط في الطريقة النقشبندية. وقد نظم المقاومة الأفغانية ضد السوفييات، ثم بعد ذلك ضد طالبان. كانت نضالته فريدة، ما استحق لأجلها لقب "أسد بنشير"، إثر تصديه لعدد الهجمات السوفياتية المتتالية. وبتصديه لطالبان، أصبح يجسّد تواصل حضور الإسلام الروحاني في أفغانستان.<sup>42</sup>

---

<sup>42</sup>) Olivier Weber, *La Confession de Massoud*, Flammarion, Paris, 2013



## محمد إقبال: فكر صوفي مستنير بأنوار الغرب

يُعتَبَرُ محمد إقبال (ت. 1938)، وهو شاعر كبير وفيلسوف وصاحب كتاب "تجديد الفكر الديني في الإسلام"،<sup>43</sup> أب باكستان المعاصرة. درس في أوروبا وكان قد تشربّ التعاليم الصوفية، وتأثر أيضا بكبار الفلاسفة الغربيين، ومن بينهم هنري برغسون. وترجم هذه الأبيات تمسّكه بمبادئ الطريقة:

" أنت خلقت الليل... وأنا صنعتُ المصباح.

أنت خلقت الصلصال... وأنا صنعت الكوب.

أنت خلقت الصحاري والجبال والغابات...

وأنا صنعت البساتين والحدائق والأرائك...

أنا الذي صنعت المرأة من الحجر...

وأنا الذي حولت السمّ إلى شرابٍ نافع...".<sup>44</sup>

يعترف محمد إقبال في هذه الآيات بأولية الله وتعالیه في خلقه. بيد أنه يؤكد سبحانه على قدرة الإنسان في التأقلم مع كل الوضعيات، وعلى قدرته ألا يكون

<sup>43</sup>) Mohammad Iqbal, *Reconstruire la pensée religieuse de l'islam*, Éditions du Rocher, 1996

<sup>44</sup>) K.G. Saiyidan, *Un grand poète indien : Iqbal*, conférence donnée à l'Institut des langues orientales Unesco, 1971, p. 10

[unesdoc.unesco.org/images/0014/001481/148173fb.pdf](https://unesdoc.unesco.org/images/0014/001481/148173fb.pdf)

[المترجم: اعتمدت في ترجمة الأبيات على الرابط التالي:

[www.alukah.net/web/aweys/0/47554/#ixzz3ha3JqQCn](http://www.alukah.net/web/aweys/0/47554/#ixzz3ha3JqQCn)

أسيرا لـ"قضاء الله وقدره". فكل خلق إلهي يقابله تكيفٌ للعبد. يطرح الإنسان نفسه إذا ككائن موهوب بعقلٍ يمكنه من الفعل في العالم. يتعلق الأمر هنا بتراويل الإنسان للحرية، ولكن أيضا برفض كبرٍ مجتمع اعتقد أنه نسي المتعالي. نحن مطالبون، كما يقول، بالوعي بأن في داخلنا يرقد "تضخمٌ غير متناهٍ للذات". وكما ينقله لنا عبد النور بيدار، فإن الهدف الأسمى للدين في تاريخ البشرية بحسب إقبال هو كشف الإنسان نفسه لنفسه.<sup>45</sup>

نصان مشهوران آخران لإقبال يسمحان لنا برسم معالم فكره بشكل أفضل: "علق قلبك بشكل جديد بالآيات المُحكّمات إذا أردت المسك بالعصر الراهن في شراكك" و "إذا كنت تحمل قلبَ مُسلمٍ، فاختر وعيك الخاص وراجع القرآن، ففي آياته يوجد مائة عالم جديد، تلتفّ أزمانه في كل لحظة من لحظاته. وأحد أزمانه العصر الحالي: إفهمه، إذا كان قلبك قادرًا على إدراك هذا المعنى".<sup>46</sup> إن انخراط المؤمن في

<sup>45</sup> ) Mohammed Iqbal, *Le Livre de l'éternité*, cité par Abdennour Bidar, in *L'Islam face à la mort de Dieu. Actualité de Mohammed Iqbal*, François Bourin, 2010, p. 36

<sup>46</sup> نفسه

عصره هو أحد التعاليم الرئيسية للتصوف، كما يؤكد محمد إقبال.

لا يجب أن تكون السنّة منغلقة، ولا يجب أن يفهم النص المقدّس ككباحٍ للحداثة باسم قراءة مزعومة للأصول. يحتوي القرآن الكريم على عناصر لحداثته الخاصة ليُدْرَج الإيمان في التطورات التي يعرفها العالم. لا يتبنى المتصوف قراءة حَرْفِيَّةً للنصوص؛ بل على العكس، فالقراءة الباطنية، التي تتخلص من المستوى صفر للقراءة، تمكّن من عَيْش الحاضر وإدراكه، ومواكبة التغير مع احترام مبادئ الدين.

من هنا يصبح انتقاد التصوف باعتباره تأملاً نرجسياً خاطئاً تماماً. وفي هذا السياق فإن تلك الأمثلة تشهد بانخراط أهل التصوف في إدارة أحوال المدينة، وخاصة في فترات الحروب والشك. وبمكنا الاستشهاد بأمثلة عديدة أخرى لأناسٍ طبعوا عصورهم برؤية تحريرية للشعوب. وتبقى الميزة المشتركة الأساسية بين تلك الشخصيات هي مقاومة الاحتلال الاستعماري، وفي نفس الوقت التأكيد على هويتهم الإسلامية، ومن خلالها على روحانيتهم. وهم يعلموننا بشكل خاص "كيف نفكر في قَدَرٍ حي لرجال ونساء حركيين،

مختلفٍ عن وضعية الخضوع لما قُدِّرَ مُسَبِّحًا<sup>47</sup>. [المكتوب: الذي نعزوه دائما للمسلمين]. وتؤشّر اللقاءات الأخيرة للصوفية إلى تدبّر عميق لدى المريدين، ينطلق من الروحانية الصوفية وصولاً إلى الرهانات الكبرى المعاصرة. ومن المفيد الإشارة إلى أن بعض قادة البلدان العربية لا يتورعون عن الاعتراف بإسهامات الطرق الصوفية في العالم الإسلامي، سواء في الماضي أو في آلام الزمن الحاضر.

يتعلّم أهل السلوك من المتصوفة كيف يفصلون المواطنة - واستحقاقاتها بلغة الحقوق والواجبات - مع عقيدتهم، وتراثهم مع المعاصرة. وفي حين يتبجّح دعاة الإسلام الراديكالي باتهام المواطنة كونها "فتنة غربية"، فإن المتصوفة، على غرار الغالبية العظمى لمسلمي فرنسا، يتبنّون تعبيرة دُنياوية للإيمان. وبممارسة مواظنتهم يستطيعون مواجهة الخزي الذي لحق جميع المسلمين، وبالتالي يتمكنون من دحر الراديكالية.

جعل عبد الوهاب المؤدب (ت. 2014) من المتصوفة ملجأً من الكوارث، ولكنه يذكر "أننا لا نجدهم إلا

<sup>47</sup> "القرآن كتاب مفتوح على قراءات متعددة"؛ حوار لسليمان

بشير ديانغ، 8 جويلية 2010، موقع Oumma.com

([oumma.com/Le-philosophe-Souleymane-Bachir](http://oumma.com/Le-philosophe-Souleymane-Bachir)).

إذا بحثنا عنهم". فهل يجب أن يتواصل تحفُّظهم، وهو جزء من أخلاقهم، حتى في زمن الفوضى؟ الجواب بالنسبة للمؤدب ولغيره هو أن ذلك "يفرض علينا أن نكون أكثر انتباهًا. هم يستحقون أكثر من غيرهم أن يكون لهم دور في أزمة الكوارث".<sup>48</sup>

التصوف إذاً تحصينٌ للخطاب حول الإسلام. إن ذلك الجهل مضرّ سواء للمسلمين أو للمجتمعات في كليتها. صحيح أن السياق التاريخي الفرنسي يمثل "أرضية جيولوجية" "زلزالية" بامتياز. ودون الوصول إلى شارل مارتيل، فإن تاريخنا المعاصر قد انعقد حول قانون الفصل بين الكنائس والدولة، بين حكومة فيشي والتعاون [مع المحتل النازي]، وقرىبا من حول تاريخ استعماري لا يزال حيًا. ففي فرنسا، أكثر من أي بلد أوروبي آخر، لا يزال الإسلام موضوعا متأججًا، متسببا في "حمى المحاصرة" من نوع جديد.

### الجمهورية في اختبار أمام الإسلام؟

لم يكن الإسلام قط، كدين، موضوع قلق في فرنسا، حتى في ذروة حرب الجزائر، في حين كان يمكن أن

<sup>48</sup>) Abdelwahab Meddeb, « Le soufisme, un recours face au désastre », *Le Monde*, 8 octobre 2014.

يكون جذعًا مشتركًا بين الجزائريين المقيمين في فرنسا، ومن ورائهم الأمة الإسلامية، بعنوان التضامن بين صفوف الأمة (جماعة المؤمنين). إن الإسلام الذي عاشه الناس وطبقوه في فرنسا منذ نهاية القرن التاسع عشر وإلى حدود السبعينات من القرن العشرين لم يكن موضوعًا لمشاكل مخصوصة أبداً، فالمسلمون كانوا يمارسون إيمانهم بدون تباهِ ولا مطالب خاصة. ولكن مع سقوط حائط برلين، فقد الغرب غريمه التقليدي، وكان لا بد من إيجاد عدو بديل له. من هنا جاء "الخطر الأخضر"، وجسدته الثورة الإسلامية التي اندلعت عام 1979 في إيران، ليعوّض الخطر الأحمر. كانت تلك بداية نظرة أخرى للإسلام، مختلفة عن سابقتها ومعادية تماماً.

## المثال الجزائري: من إضعاف الزوايا إلى ظهور النزعة الراديكالية

مضت بضع سنوات منذ أن داهم وحش العالم العربي الإسلامي. وتمثل الجزائر، من هذه الزاوية، المثال الأبرز. وفي هذا الصدد أسمح لنفسي بالتجرؤ على المخاطرة وتقديم الفرضية التالية: إن القضاء على الزوايا العالية الشأن روحانيًا في الجزائر زمن الاستقلال

وتعويضها بنظام سياسي يوصف بـ"الاشتراكية الخاصة" قد قوّض بنية الحياة الاجتماعية وشجّع ظهور إسلام راديكالي.<sup>49</sup> لقد اصطدمت "إرادة" دمقراطية الحُكم في النهاية بظهور الجبهة الإسلامية للإنقاذ (FIS) وتناميها في المجتمع، وهي التي تنادي بإقامة دولة إسلامية. وفي عام 1990، مكّنت الحملة الانتخابية للجبهة، وقامت على خطاب اجتماعي، من بعث مشاريع خيرية متعددة، ثم من الفوز بأهم البلديات. وفي الانتخابات التشريعية الموالية، وبحسب نتائج الدور الأول، فإن جبهة الإنقاذ كان يمكن أن تحصل على نسبة 82 بالمائة من مقاعد البرلمان لو لم يفرض الجيش إيقاف المسار الانتخابي. فجّر ذلك القرار "العشرية السوداء" التي خلفت آلاف الضحايا. وكان لا بد من حصول العملية الإرهابية في القطر الباريسي السريع RER بمحطة سان ميشيل بباريس سنة 1995، وذبح قساوسة تيبيرين في العام الموالي لتقتنع فرنسا - ومن ورائها بقية العالم - أن الأحداث في الجزائر ليست فقط "شأنا داخليا".

<sup>49</sup> في هذا المستوى تبقى تلك الفرضية في حاجة إلى التأكيد من خلال البحث في العلوم الاجتماعية

واليوم، تعرف الجزائر وعيا متزايدا بما يحصل. فقد ذكّر محمد عيسى، وزير الشؤون الدينية والأوقاف الجزائري الحالي، مؤخرا أن التصوف يمثل جزءا من التراث الديني الجزائري. وعبر عن أسفه من أن بلدّه "وهو ينتمي إلى حضارة أشعّت من قرطبة" قد ارتد "إلى ممارسات بدوية للدين"، مُعربًا عن أمله "في مصالحة الجزائريين مع الدين الحق".<sup>50</sup> ويعزز ذلك الفكرة القائلة إن إضعاف الزوايا ذات القيمة الروحية العالية قد ترك الساحة مفتوحة أمام إسلام وافدٍ، متشدد، غير معهود لدى الممارسات التقليدية للإسلام في الجزائر وفي بلاد المغرب عموما. ويمثل المغاربة الجزء الأكبر للجمالية المهاجرة في فرنسا.

والإشارة إلى "الممارسات البدوية" للدين التي اعتمدها وزير الشؤون الدينية الجزائري تعبيرٌ ملطّفٌ للوهابية، وهي صيغة صارمة ومرتقنة للإسلام السنيّ قائمة على النواهي. كل ما يمكن أن يشغل العبد عن علاقته بربه إثمٌ. وعلى عكس المتصوفة فإن هؤلاء يُشنعون التبرك بالأولياء. وقد هدموا في العشرين سنة الماضية عددا لا يُحصى من أماكن مقدّسة وذات قيمة تراثية عالية في

<sup>(50)</sup> حوار مع محمد عيسى، جريدة الوطن الجزائرية، 17 سبتمبر



نفس الوقت. فمن تحطيم تماثيل بوذا في باميان من قبل طالبان سنة 2001، وصولاً إلى أضرحة الأولياء في مالي سنة 2013، تحت عنوان كُفريّة عبادة الأصنام، فإن نفس الدافع هو ما يحرك هؤلاء. يقول عبد الوهاب المؤدب "إذا كان مرض الإسلام سابقاً عن الوهابية، فإن هذه العقيدة الأخيرة قد عززته بشكل كبير، بعد أن وسّعت نسيجه في العالم الإسلامي بفضل البترودولار"، مضيفاً أنه "من الضروري الدفاع عن بلداننا بالتصدي لهذه الهجمة الوهابية السلفية. إن هذه الأخيرة بصدّد تحويل الإسلام ودفع الشعوب إلى الأسوأ، إلى التخلف والظلامية والانغلاق والتعصب".<sup>51</sup>

وقد تعزز تطور الإسلام الراديكالي بـ"مستوى" إدارة البلدان العربية الإسلامية. ففي حالات عدّة حوّل الحكّام شعوبهم إلى ساحة بور، سواء اجتماعياً أو اقتصادياً أو ثقافياً. وفي الجزائر، كما في بلدان إسلامية عديدة أخرى، فإن "القوميين وليسوا الإسلاميين هم من قادوا بلدانهم إلى الاستقلال؛ وقد كانت الراديكالية الدينية الجواب الأخير عندما

<sup>51</sup>) Abdelwahab Meddeb, «Sortir l'islam de l'islamisme», *Le Monde*, 16 décembre 2012.

انسدّت كل الطرق، وبالتالي فهو لم يكن الاختيار التلقائي والطبيعي والمباشر للعرب والمسلمين".<sup>52</sup> ما يعني أن توظيف الدين لم يكن قط الخيار الأول، وأن أصل الكارثة الحالية يجب أن يوضع لا شك في الرصيد السلبي لقادة الدول العربية. ولا يجب بأي حال من الأحوال تناسي أن تلك البلدان قد حصلت على استقلالها منذ بضعة عقود، وأن القيام بحوار فلسفي واجتماعي لم يكن من أولوياتها. وقد أعطت ثورات "الربيع العربي"، وهي لا تزال قائمة الآن، إشارة الانطلاق لتتحرك المجتمعات العربية الإسلامية. وتؤشّر التطورات الأخيرة التي تعرفها الساحة التونسية إلى بعض الأمل، ولكن يبقى من السابق لأوانه الحكم على تلك التجربة أو تقديم كشف حساب.

والآن، أصبح الرأي العام الغربي، المصدوم بالهجمات الإرهابية لـ 11 سبتمبر وما تلاها من فظاعات داعش، مسكوناً بفكرة كون الإسلام قد تحول إلى الأيديولوجية التي يجب محاربتها. لقد تمكن الإرهابيون من تشويه الإسلام ومن حجب بُعده الروحي. فهل خلّت تلك الاضطرابات وكذا مركزية الصراع

---

<sup>52</sup>) Amin Maalouf, *Les Identités meurtrières*, Grasset, 1998, p.86.

الإسرائيلي الفلسطيني من كل تأثير في فرنسا حيث يعيش عدّة ملايين من المسلمين؟  
 فبعد أن طالتهم البطالة - وخاصة الشباب منهم -  
 والهشاشة والتهميش، وبشكل عام التمييز، أصبح  
 أبناء العمّال الذين قدموا "لتنظيف فرنسا" والقيام  
 بالأعمال التي رفض الفرنسيون القيام بها إبان الفترة  
 الاستعمارية وما بعدها، "البروليتاريا الرثّة"، كما  
 أصبحوا يشكّلون لدى البعض "الطبقات الخطيرة"،  
 وليست "الطبقات الشعبية".

### الإسلاموفوبيا: هذه العنصرية الجديدة

"المسلمون": إن استعمال هذا المصطلح، ونحن  
 نتحدث من باب أولى عن ملايين، بدأ يُزعج في بلد  
 يرفض باسم اللائكية التركيز على الأصل العرقي أو  
 الديانة. ولكن كيف يُنادى هؤلاء الأطفال؟ أحفاد  
 المهاجرين، المولودون في فرنسا، وكثير منهم من أبوين  
 فرنسيين. ثم تدريجياً أصبحوا يُنعتون - بحسب  
 الحالات والمناسبات - بالـ "beurs"<sup>53</sup>، "العائدين

<sup>53</sup> أصل الكلمة arabe (عربي) قُلبت حروفها من a-ra-beu إلى beu-ra-a وتُختصر في كلمة beur ومؤنثها beurette واستعملت لأول مرة سنوات 1982 و 1983، قبل أن تدخل إلى

بالولادة إلى"، ثم بـ"أطفال الأحياء"، و"المتوحشون"، قبل أن يُطَلَقَ عليهم أخيرا "الأراذل" عندما يعيشون في الضواحي، وممثلي التنوع أو ممثلي "البرجوازية" للحاصلين منهم على شهادات عليا والساكنين في الأحياء الفاخرة. وعلى الرغم من مطالبتهم بالعدالة، فإنهم لم يحصلوا قط على الاعتراف بكونهم فرنسيين بشكل كامل. وقد أصبح الإسلام بالنسبة لقسم منهم هوية للانكفاء، درعًا واقية. وفي ظاهرة تقليدية "الانعكاس وصمة العار" فإن العديد منهم يرفعون شعار الإسلام كحركة تحدي.<sup>54</sup>

وفي نفس الوقت كان الكُتَّاب يتحاورون على صفحات الجرائد لمعرفة ما إذا كان مصطلح "إسلاموفوبيا" دقيقا في وصف العنف الرمزي، وأحيانا الجسدي، الذي يتعرض له أولئك الذين يمكن أن يكونوا - "حقيقة" أو "افتراضا" - مسلمين. وحول هذه النقطة الدلالية تحديدا، لا بد من التذكير أن

---

قاموس رويبر في سبتمبر 1985. وأصبحت الكلمة تحمل شحنة سلبية وتعني تخصيصا أبناء المهاجرين العرب من شمال أفريقيا

[المترجم]

<sup>54</sup> (*bras d'honneur*) : حركة لا أخلاقية يُلَوَّحُ فيها بالذراع إلى الأعلى احتجاجا وتحديًا [المترجم].

استعمال مصطلح "إسلاموفوبيا" قد فقد مصداقيته، لخطأ إجرائي، لدى بعض المثقفين الفرنسيين لأنه من "اختراع" آية الله الخميني. وفي الحقيقة فإن الإدارة الاستعمارية الفرنسية هي من صاغته مع بداية القرن العشرين. ففي تقرير اللجنة الوطنية الاستشارية حول حقوق الإنسان لسنة 2013، نجد أنه يعود مطوّلاً إلى هذا المفهوم، ليعترف في النهاية بصلاحيته: "لقد تعرضت العنصرية إلى تغيرات عميقة لبراديغماتها في سنوات ما بعد الاستعمار، مع انزياح للعنصرية البيولوجية إلى العنصرية الثقافية"<sup>55</sup>.

إن اختطاف قيم الإسلام وتزييف رسالته من قبل سديم من المتطرفين والأصوليين قد بلور المخاوف ومكّن من حدوث استجابات رفض ذي طبيعة إسلاموفوبية. وأمام توسع الظاهرة، والتي عوض أن يُقلّصَ من حجمها تُركت لتتطور في ظل الإهمال أو الضغينة، أصبح للمسلمين الحق في ترقب تعاطف الطبقة السياسية، ومُجمل المثقفين، معهم، واستنكار واضح لا يُبس فيه للخطر الداهم. وعوضاً عن ذلك عشنا مزايدات حقيقية في الخطابات والمواقف

<sup>55</sup>) Commission nationale consultative des droits de l'homme (CNCDH), rapport annuel 2013.

الإسلاموفوبية، وبشكل خاص في وسائل الإعلام. كيف نفعل والحال تلك للتذكير بأن الإسلاموفوبيا ليست رأيًا ولا وجهة نظر، بل جرمًا حقيقيًا يوازي تماما أقوالا عنصرية أو معادية للسامية، وهي أقوال يُجرّمها القانون لحسن الحظ. وقد بلغ بنا الأمر التساؤل عن السبب الذي تظهر فيه فرنسا، وهي بلد حقوق الإنسان، مُكَيَّفَةً استنكارها بحسب طبيعة السلوكات العنصرية والفرص الجغرافية للاحظة.

ويُعتَبَرُ ذلك الشك أكثر مشروعية خاصة إذا وقفنا دون حراك أمام تمييع الأفعال والخطب الإسلاموفوبية بامتياز، ودون القيام بالتوضيح وإعادة التصويب منعا للاستقرار النهائي للشعور بالتهميش في نفوس الغالبية العظمى لمواطنينا المسلمين، شعور يستفيد منه كل أنواع التطرف. لنحدّر من تمييع الأحداث الإسلاموفوبية بامتياز، ومن غياب التحرك ضدها، لأن بعضها لا يزال يقبع في الذاكرة، ويشكّل سلسلة يحقّ لها أن تخيفنا:

- كتاب "أرسطو في جبل القديس ميشيل" (*Mont Saint-Michel*) لسيلفان غوغنهايم (*Sylvain Gougenheim*)، الذي يرفض أن

- يكون للعالم العربي والإسلامي أي إسهام في العلم، طور صيغة من الإسلاموفوبيا العالمية؛
- الخطاب الذي ألقاه راتيسبون دو بونوا السادس عشر *Ratisbonne de Benoît XVI* حول الإسلام، وفيه استشهد قداسة البابا بقولة لإمبراطور بيزنطي، وفتح الباب أمام إمكانية تأويله على أنه إسلاموفوبيا دينية، جدل سرعان ما وقع لحسن الحظ تداركه لاحقا من خلال زيارة أذاها للجامع الأزرق بإسطنبول وتحدث فيها عن الحوار بين الأديان؛
- إسلاموفوبيا سياسية: الأقوال المتواترة لجان ماري لوبان *Jean-Marie le Pen* التي تستهدف الهجرة باستمرار، وخاصة منها المسلمة؛
- إسلاموفوبيا فكرية: مفهوم "البديل الكبير" الذي وضعه رونو كامو *Renaud Camus*، هذه الفكرة العنصرية التي تزداد انتشارا، تماما كالتركيز المرضي لألان فنكلكرات *Alain Finkielkraut*، الفيلسوف الذي يعيش مشكلة هوية، حول إسلام أحياء الضواحي؛
- إسلاموفوبيا إعلامية: الأقوال المنتقاة للوجه التلفزيوني المشهور بالجدل إريك زيمور *Éric*

*Zemmour* على كل القنوات، والتي عملت على صنع "تسويقية الكُره" وخاصة مع كلامه الأخير حول "النفي" كخيار مطروح لا يجب استبعاده؛

- إسلاموفوبيا أدبية: "إستعباد" (*Soumission*)، وهو كتاب ميشال هوبالك *Michel Houellebecq*، الذي ينتمي إلى مجال الخيال العلمي، ولكنه - لا شك - يركب أمواج المخاوف من الإسلام ومن المسلمين؛

لا بد من الحذر من حالة اللامبالاة العامة تلك، لأننا كما يقول القديس أوغسطين: "الكثرة رؤية كل شيء، فإننا ننتهي إلى تحمّل كل شيء. وبفضل تحملنا لكل شيء فسنصل إلى السماح بكل شيء. ولأن كل شيء أصبح مباحا فسنقبل بكل شيء. وبسبب قبولنا لكل شيء فسينتهي بنا المطاف إلى إقرار كل شيء".

ومن هنا لا بد من الإشادة بالكتاب الشجاع الذي وضعه إيدني بلانال *Edwy Plenel* تحت عنوان "إلى المسلمين".<sup>56</sup> لأول مرة يقوم عدد كبير من النخبة،

<sup>56</sup>) Edwy Plenel, *Pour les musulmans*, La Découverte, 2014



ولا يُشتَبه في كونها معروفة بنزعتها الطائفية، بتحذير الجماعة الوطنية والإعلان عن انخراطها في التصدي للإسلاموفوبيا. ويمكن القول إن هذا التطور الفارق يمثل حدثاً في حد ذاته، أو لعله انتصاراً أولاً.

### مظاهر التمييز: فرع عن الإسلاموفوبيا

إذا كان وعد الجمهورية هو المساواة، فالواضح أن هذه الأخيرة تتعرض اليوم إلى التقويض بفعل أشكال التمييز العديدة التي يعاني منها أشخاص محدّدون بسبب أصولهم أو دياناتهم.

ففي ظرف عقود قليلة فقط، تحول "المهاجرون" إلى "المسلمين". ولكن تلك الشعوب التي آمنت بوعد الجمهورية، "القائمة على الجدارة وعلى عدم التمييز بين الأعراق والأديان"، قد عبّروا عن انتظاراتهم في المساواة بمناسبة "المسيرة من أجل المساواة" التي انتظمت عام 1983. كانت تلك بالنسبة لهم "مسيرة المغفلين": فقد وسمّت وسائل الإعلام والأحزاب السياسية تلك المسيرة بـ"مسيرة أبناء الهجرة ذوي الأصول المغاربية (Marche des beurs)"، وقد حُرِّفت عن هدفها السياسي. وبحشر منظمي المسيرة في هوية موروثه ومشوّهة، سعى كبار الفاعلين

السياسيين إلى الحطّ من قيمة الرسالة التي يحملونها: المساواة. وبذلك فإن المطالب الجمهورية بالمساواة عندما لا تُلبّي في كل مرة فإنها تترك مكانها إلى مطالب فتوية، يغذّيها الإحباط والشعور بأن الجمهورية تعاملهم كمواطنين من درجة ثانية.

إن أشكال التمييز، التي تُعتبر "موتًا اجتماعيًا"، هي مسّ من المثال الجمهوري نفسه، وتحيل الأشخاص المستهدّفين في الآن ذاته إلى هوية مشوّهة. إن النضال ضد أشكال التفرقة ومن أجل تعميم المساواة يمرّ عبر مقاومة صارمة ضد الإسلاموفوبيا وكل أنواع العنصرية. وهذا العمل، الذي يشارك في مقاومة الأفكار المسبقة والصور النمطية، يتحرك بالضرورة في مجال مقاومة التمييز.

إن التجربة الجماعية والمتواصلة للتمييز الذي عاشه المواطنون الفرنسيون ذوو الأصول المهاجرة، وغالبيتهم من المسلمين، تبقى قليلة التقدير بشكل واسع، وأحيانا غير مؤهلة أصلا. ويعود ذلك الاستنقاص إلى فرادة تلك التجربة، المُحدّدة "باليقين من أنك قابل لممارسة التمييز ضدك، والشك في كونك تعرّضت

للتمييز".<sup>57</sup>

ومن الصعب حقيقة، في تجارب الوصم، التمييز بين ما يعود إلى العنصرية، والتمييز، والمحاباة في التعامل أو الظلم. وهذا الخلط، سواء الظاهراتي أو المفهومي، هو ما يشلّ الترسانة القانونية والإجرائية الموجهة لمحاربة التمييز. وهو نفسه ما يدفع البعض لعدم الاعتراف بوجود التمييز، ولإنكار أبعاده السياسية وتقليلته إلى مجرد تصرفات ذاتية، أو حتى إلى مرض جنون العظمة. تعود تلك الإساءة ليس فقط إلى أشكال التمييز، بل أيضا إلى التجريد الرمزي لتلك التجربة من الأهلية، معتبرينها عملية بائسة لتحويل الذات إلى ضحية.

تجد النخب السياسية والإدارية، في رفض للواقع، صعوبة بالغة في إدراك الفارق بين قرنين من الأفكار الجمهورية وبين الوقائع الموضوعية: يكفي بالنسبة للبعض أن يسرد الفصل الأول من دستورنا بطريق "تصفية الحساب وإغلاقه". ألا يجدر التذكير بأن الفكرة الجمهورية كانت رد فعل على "شلال أشكال الاحتقار" التي كانت تنظّم المجتمع في النظام

<sup>57</sup>) François Dubet, Olivier Cousin, Éric Macé et Sandrine Rui, *Pourquoi moi ? L'expérience des discriminations*, Seuil, 2013, p. 79

القديم؟<sup>58</sup> لم يعد الازدراء المعاصر عموديا فقط؛ هو ساخر ومنتشر وماكر ومجهول، بل ومؤسسي أحيانا.<sup>59</sup>

ذلك ما دفع عالم الإناسة مالك شبل إلى القول إن: "شعور الانتماء إلى الإسلام يزيد كلما تراجعت العدالة الاجتماعية، ما يؤدي إلى حلول العقيدة محل القانون".<sup>60</sup> وإذا لم تُخض تلك المعركة عمليا بإصرار، فإن البعض سيجد ملاذًا في الانكفاء على الذات وفي مرجعيات مُأسطرة، مع الخطر المحدق في الانحراف نحو الراديكالية.

تستدعي مقاومة الراديكالية أجوبة متعددة. أولاها والأكثر إلحاحية وضرورة هي المدرسة بلا ريب. ولكن وزارة التربية، ورغم أنها تتموقع في الصف الأول لقياس الشروخ في المجتمع الفرنسي، لم تُقدّر لحد الآن نتائج المنافسة التي تتعرض لها من تكنولوجيات الاتصال الحديثة. كما لم يعد لها احتكار نشر المعارف. لا بد

<sup>(58)</sup> ما قبل الجمهورية في فرنسا [المترجم]

<sup>59</sup>) Bariza Khiari, « Quel modèle républicain ? », *Quelle France dans 10 ans ?*, rapport d'information n° 246 (2013-2014) fait au nom du groupe de travail du Sénat, déposé le 18 décembre 2013, p. 157-167 ([www.senat.fr/rap/r13-246/r13-2461.pdf](http://www.senat.fr/rap/r13-246/r13-2461.pdf)).

<sup>60</sup>) Malek Chebel, *Manifeste pour un islam des Lumières*, Hachette Littératures, 2004, p.60.

إذا من أن تعيد اختراع مشروعيتها لمقاومة عملية "إغراق الدماغ".

### مركزية المدرسة في صنع مواطن "مستنير"

ساهمت المدرسة بقسط وافر في إضفاء المشروعية على الفكرة الجمهورية وعلى تكوين شعور بالولاء للوطن، أساسا عبر فرض الفرنسية كلغة وحيدة في التعليم في كل أرجاء البلاد. وكان تمكين اللغة تلك من الهيمنة على التعليم هو مؤسس البناء الجمهوري والحديث لفرنسا.

وصل ذلك المسار التاريخي والسياسي إلى مداه: أصبحت اللغة الفرنسية هي اللغة المشتركة، وتحررت السلطة السياسية من الديني، ووقع تبني اللائكية كإرث مشترك. ومع ذلك فالتوترات قد تضاءلت. وقد حان الوقت لإعادة تمكين المدرسة من طموح التربية الموسع، مع الإخلاص لروح "رسالة إلى المرين" الشهيرة، التي وضعها جول فيري *Jules Ferry*. لا بد أن تستثمر المدرسة من جديد في الوظيفة التربوية، مرتكزة إلى مهامها التعليمية.

وإذا ما قبلنا عن طواعية بأن فرنسا القرن الواحد والعشرين هي فرنسا مختلطة الأجناس، متعددة

الهويات، فإن ذلك سيعني، بالنسبة للمدرسة، ليس فقط عدم إنكارها ولا الاعتراف بها حتى، بل إدراجها بشكل كامل وموضوعي في التاريخ الوطني وليس في هامش أسفل الصفحة فحسب. وحدها المدرسة من تملك القوة والتنظّم والمشروعية للوصول بهذا المشروع المواطني إلى مداه، وللقيام، يوماً بعد يوم عبر تراكم الانتصارات في معارك صغيرة ضد الجهل والأفكار المسبقة، بكسب العقول وليس القلوب فحسب. عندها، يمكن لهذه الرسالة التربوية أن تتوسع عبر محاور ثلاثة جديدة تقوم مفصلتها على محتوى يمكّن من إعطاء معنى:

- تقييم ومراجعة تدريس الظاهرة الدينية بُعية تمكين العقول من أدوات قادرة على استيعاب الآخر باختلاف جنسه ولونه ودينه، كمثيل في الكرامة؛

- مقارنة الاستعمار والتحرر من الاستعمار ضمن وجهة نظر "التاريخ المشترك" حتى نمكّن كل واحد من فهم البناء الوطني في تعقيداته، ونخفف من توترات يمكن أن يتسبب فيها التاريخ الذي لا يزال راهنا؛

- المسارعة إلى إدراج مسألة استعمال تكنولوجيايات المعلومات في التدريس، حتى نرسخ لدى الطلاب المسافة النقدية اللازمة تجاه المحتوى المتوفر على الشبكة، ولكن أيضا توعيتهم منذ نعومة أظفارهم على الاستعمال الرشيد للخطاب المتوفر على الأنترنت.

ورغم أن اللائكية هي مبدأ تنظيمي للمجتمع، فهي أيضا مصدرا للبلبله؛ فالبعض يماثلونها بالإلحاد، والبعض الآخر بمجرد الحياد. ومن جهة أخرى ألا يجدر ببيداغوجية اللائكية أن تتوجه أيضا إلى عموم المواطنين.

### البيداغوجيا الضرورية لللائكية

الخطأ السياسي الكبير الذي ارتكبه الجمهوريون هو عدم التصدي "للجبهة الوطنية"<sup>61</sup> والسماح لها باختطاف اللائكية وتحويلها عن مبادئها لتصبح أداة عداوة ضد قسم من الشعب. وإذا لم تكن الجمهورية

---

<sup>61</sup> الجبهة الوطنية: حزب أقصى اليمين (أو اليمين المتطرف) في فرنسا. أسسه وترأسه لعقود عديدة جان ماري لوبان. تقوم عقيدته الأيديولوجية على تحميل الهجرة (وبالتحديد المغاربية) كل مشاكل فرنسا الاقتصادية والاجتماعية وغيرها. [المترجم]

تبنى أي دين، فهي مطالبة على الأقل بحماية الممارسة الدينية في أقصاها، ما حافظت العقيدة على عدم الحلول محل القانون. وهذا أحد أبعاد اللائكية. ولكثرة "لَيَّ" مفهوم اللائكية، يذهب البعض أبعد من ذلك عندما يعتبرون الإيمان ضدًا للتحرر. في حين وقع تعريف اللائكية من الناحية النظرية باعتبارها قضاء سياسيا للتوافق، يمكّن من العيش سويًا رغم الاختلافات، في جوٍّ من حرية الإيمان أو الكفر: لا تسعى اللائكية إلى القضاء على الإيمان من قلوب الناس، بل إلى تمكين "سيزار من الحصول على ما يعود إليه".

إن الانخراط في تراث، أو في ثقافة، بسبب مساهمتها في الرفع من شأن الذات وفي البناء الشخصي، يمكن أن يكون له أيضا بُعدٌ تحرري رئيسي. وفي هذا السياق فإن للعة، والإحساس بالكرامة بُعدٌ جماعي أيضا. إن العمل على الحيلولة دون استعمال الإسلام - والدين عموما - كأداة، يعني أيضا الاعتراف بدور العقيدة وإسهامها في بناء الشخصية. هل يمكن أن يكون الانتماء إلى الإسلام متعارضا مع الولاء للمواطنة؟ كلا، يكفي أن تتأمل الانخراط الكبير للمسلمين في فرنسا في الهياكل الوسيطة - جمعيات،



نقابات، أحزاب سياسية، ... - وتندكر موت الجنود المسلمين في مالي أو في أفغانستان أو في جميع ساحات العمليات التي قامت بها قواتنا المسلحة، لإدراك مدى رغبتهم في الانضمام إلى حياة المواطنة في مستوياتها المختلفة.

### ضعف التعليم الديني

أغلب مسلمي فرنسا لهم معرفة غرائبية لتعاليم الدين الذي ينتمون إليه. ويعود ذلك إلى أسباب وجيهة! فالاطّلاع على النصوص خارج أرض الإسلام ضعيف، والسبب عدم وجود أي مؤسسة للتعليم الديني. في حين يتمتع الكاثوليك والبروتستانت بمدارس دينية. والعائلات التي تختار لأبنائها - من بين هؤلاء - ارتياد المدرسة العمومية يمكنها الانتفاع بتعليم ديني غير بعيد عن محل سكنهم؛ ويمكن لأولئك الشباب التمتع بدعم روحاني في أدائهم لمختلف الطقوس الدينية، وبالخصوص في طقس "الكومنيون" (وهو جزء من التعميد ويرمز إلى العشاء المقدس) وفي سرّ التثبيت (أو سرّ الميرون).<sup>62</sup> كما

<sup>62</sup> la confirmation : سر الميرون هو أحد الأسرار السبعة في =

يمكن للعائلات اليهودية، إذا ما رغبت في ذلك، أن تسجل أبناءها في مدارس دينية خاصة. إضافة إلى أنها تستفيد، في إطار الإعداد لطقس إدراك أبنائهم وبناتهم سن البلوغ الديني،<sup>63</sup> من تدريب على العقيدة ومرافقة. وعمليا لا يوجد أي طقس للعبور يسمح بإعداد الأطفال المسلمين لمعرفة دينهم.

أما بالنسبة للعائلات المسلمة التي ترغب في تمكين أبنائهم من تعليم ديني، فلا وجود إلا للمعهد ديني واحد معترف به، في فرنسا كلها.<sup>64</sup> من هنا فإن المراجع الدينية الوحيدة هي تلك التي تنحصر فقط في الفضاء العائلي، وهي مراجع وممارسات تتسم أحيانا بالموت؛ المصدر الآخر لتحديد الهوية يعود إلى وسائل الإعلام، التي تحيل على صورة مَبْحَسَة للإسلام. فالمصليات الإسلامية لم تتجاوز بعدُ - مع الأسف - فضاء السجن والجيش، وتجد صعوبة كبيرة

---

= الكنيسة المسيحية؛ والمبرون كلمة تعني الطيب أو الدهن المقدس  
[المترجم]

<sup>63</sup> bar/bat-mitsva : طقس يهودي يقام للطفل bar أو للبنات bat عندما يصلون سن 13 ، وهو سن البلوغ الديني في اليهودية، أو طقس العبور، وأصل الكلمة آرامية [المترجم]

<sup>64</sup> وهو معهد ابن رشد بمدينة "ليل" الذي يتكفل بالتلميذ بنسبة 100 بالمائة من أول قسم وحتى الباكالوريا.

في إضفاء الطابع الاحترافي عليها في المستشفيات. وقد تمكن دجالو العقيدة، وبيسر، شق طريقهم في هذه الصحراء الثقافية والدينية. واليوم، في فرنسا، نجد أن الهيكل الوحيد لتربية الشبيبة المتّصف بقدره حقيقية على التأطير هي الكشافة الإسلامية في فرنسا، وهي مبادرة صوفية حديثة النشأة تقريباً.<sup>65</sup>

### الظاهرة المسماة بـ"الجهادية الفرنسية"

سنة 2001، رسم كريستيان جامبي *Christian Jambet* خط القطيعة مؤكداً: "أصبح الصراع مُعلنًا: لقد بدأت الحرب فعلا بين الإسلام الروحي وإسلام الفقهاء".<sup>66</sup> وبعد عشرية من الزمن يبدو أن الخلاف بين هذين التوجهين في الإسلام قد وقع تجاوزه. وقد تزحزح الخط الفاصل بينهما عن مكانه: فالخطر يقدم من انحرافات طائفية تعمد إلى توظيف الإسلام.

<sup>65</sup> معهد أسسه الشيخ بن تونس في سنة 1990، كما أن الكشافة الإسلامية في فرنسا هي الفرع الخامس للكشافة الفرنسية  
<sup>66</sup> Christian Jambet, « Entre islam spirituel et islam légalitaire : le conflit est déclaré », *Le Monde*, 26 juin 2001.

كريستيان جامبي، فيلسوف متخصص أساسا في الإسلام، وهو يشغل اليوم كرسي الدراسات الإسلامية في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (EPHE)

إن الجرائم البشعة المرتكبة باسم الإسلام من قبل دعوى الخلافة الداعشي الذي ظهر من اللا مكان، وكذا تدمير مخطوطات تنبكتو وأضرحة الأولياء المسلمين في مالي، هي ما افتتحت حقيقةً هذه الحقبة من الصراع الجديد داخل العالم العربي الإسلامي. لا يمكن لأي مؤمن أن يقبل بالذبح وتخطيم المعالم المقدسة لأي دين. هذا الخزي هو فقط من صنع الظلاميين والأصوليين الذين أخذوا الإسلام رهينة في وجهة وصفها عالم الإناسة الدينية، الجزائري زعيم خنشلاوي: "بالمثال البدوي شبه الوثني".<sup>67</sup>

إن ظاهرة "الجهاد الفرنسي" المكوّنة من شباب يعيشون حالة الضياع وفقدان البوصلة، يقع انتدابهم من خلال الشبكة العنكبوتية، هي ظاهرة مقلقة. لا يتعلق الأمر، كمياً، إلا بعدد قليل من الأشخاص، ولكن راديكاليّتهم مخيفة. يتناسى البعض إن هذه الظاهرة تحيل إلى الشلل الدولي تجاه سوريا: ففي سنوات ثلاثة ذهب حوالي 200 ألف سوري، ومن بينهم آلاف الأطفال، ضحية الحرب الأهلية. بيد أن قرار الذهاب إلى موت محقق يُقدّم كشرط للدخول

<sup>67</sup>) Interview de Zaïm Khenchelaoui, « L'Algérie se fanatise de partout », *El Watan*, 18 septembre 2014.

إلى الجنة، وينبغ من تلقين عقائدي وتلاعب بالعقول، يدفع الدولة إلى تحمّل مسؤوليتها. كيف يمكن حماية أولئك الشباب، والتصدي لغرق سفينتهم في دوامة الطائفية؟ كيف نمنع سفرهم؟ في أي ظروف نساعد على عودتهم؟ وكما الأمر بالنسبة للسلطات العمومية، فإن المسؤولين المسلمين، سواء انتموا إلى المجال الجمعياتي الثقافي أو الديني، مطالبون بالانخراط الفعلي للكشف عن المسارات الراديكالية وتخفيف منابع تلك الظاهرة.

وبهذا الصدد فإن قانون الإرهاب - وهو ليس دمويا بكل الأحوال - الذي وقعت المصادقة عليه في البرلمان في شهر أكتوبر 2014 والذي يتضمن سحب جواز السفر ومراقبة لصيقة للمواقع الاجتماعية على الشبكة، وكذا القيام بتكوين على مسارات التحول إلى الراديكالية لدى الأشخاص المؤطرين للشباب، كل ذلك يمكن أن يساعد على محاولة القضاء على هذه الدوامة.

وبعد أن تمكّن منهم الوهن بفعل وسائل الإعلام التي ما فتئت تشوّه سمعتهم بانتظام، تكاثر عدد المسلمين، وخاصة منهم الشباب، الباحثين عن أجوبة على تساؤلاتهم في المنتديات والمواقع الالكترونية المختصة.

الانترنت، حامل المعلومات الرائع هذا، هو أيضا ملاذًا لأسوأ المشعوذين، عامل اختيار لنشر أقوال شعبية ومثيرة للقلق. يعود للدولة السهر على منع الشبكات الغامضة من استغلال سذاجة وجهل جمهور شاب في أغلبه، تغمره التساؤلات، وذلك عبر التشجيع على بعث محاورين آخرين وقنوات إعلامية جديدة. وهذه المعركة هي من صلاحيات السلطات العمومية خاصة وأن الانحرافات الطائفية تزدهر وقت الأزمات.

التعاليم الصوفية هي، كما قيل دائما، تعاليم طُرفية وجماعية وروحية. وترمي إلى تمكين الثريد من التساؤل حول ما يمكن أن يقدمه للآخرين، وغير ذلك. ومنذ ذلك الحين، يصبح التباين مخيفا: ففي حين نجد الفئات الأكثر هشاشة، والأقل تعليما، والأكثر انعزالا هي من ينخرط في علاقة غير متكافئة عندما تجد نفسها وجها لوجه مع مواقع إلكترونية تمدها، من خلال صور غاية في الإثارة ويقىنيات قطعية وسوفسطائيات وأكاذيب، برسالة وتسطر لها سلوكا يقودها إلى بيع "تقدير للذات" (كرامة)، وهو لا يتعدى كونه اغترابًا ذهنيا؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تستدعي الممارسة الصوفية العقل وتتوسل

بالمعروف ونكران الذات. وعدم التناسق ذلك ليس خصيصا بالإسلام، بل على العكس من ذلك. فهل سنواصل إلى ما لا نهاية القبول ببقاء الشبكة العنكبوتية فضاء "للحرية" خالٍ من القيود؟ وإذا كان لا بد من الحسم، يصبح ظهور فضاءات أخرى للحوار المميّز مسألة تفرض نفسها أكثر من أي وقت مضى كضرورة سياسية.

ينسج السياق الذي عرضنا له تشكيلا متفجّرا: حاجة ملحة للتكوين والمساعدة الروحية في فرنسا، ضعف في المشروعية والتمثيل الديني، تواصل الروائح الكريهة التي خلفها الاستعمار، انحرافات اللائكية، عنصريات فاعلة وشبكات جهادية. لقد حان الوقت لاقتراح سبلٍ وحلول بديلة، سيمّا وأن فرنسا والغرب، وهم أوفياء لإرث الأنوار، قد عرفوا كيف يُكوّنون عقولا عديدة، سواء كانوا رجال دين أم لائكيون، قادرة على التصدي والرفع من مستوى النقاش.

## الكف عن توظيف الإسلام حتى نتمكن من ممارسة مواطنة نشطة

يفكر عديد علماء الإسلام منذ مدّة في الرهانات المعاصرة والتحديات التي يجب على المسلمين الغربيين رفعها.

يذهب عبد الوهاب المؤدب إلى أنه "بمقدور مسلمي القارة العجوز ممارسة ديانة روحانية، تتغذى — من بين أشياء أخرى — بالمخزون الثري للتصوف. ولا يكون ذلك عبر نكران الذات بل بإثباتها بحريّة، ما يجعل منتسب الإسلام فاعلا ناجحًا في أفق كويتي (كوسمبوليتي) ما بعد غربي".<sup>68</sup>

يمكن للتصوف أن يلعب دور الممرّ الثقافي والروحي بين الشرق والغرب. وهذا هو تحديدا الإسلام الذي يجب أن نسترجعه في فرنسا لئُمكن من عودة العلاقات العادية والطبيعية في جو من الهدوء، وهو شرط الديمقراطية الساكنة التي يحدد المواطن فيها توقعه بكل حرية.

---

<sup>68</sup>) Abdelwahab Meddeb, *Pari de civilisation*, Seuil, 2009, quatrième de couverture



أما بالنسبة لعبد النور بيدار "فنحن المسلمون الغربيون، المستقرون في قلب الحداثة وفي مقدمتها [...] يمكننا أن نكون غدا مستقبل الإسلام، أي أولئك الذين يحققون في أنفسهم، في حياتهم وفي قلوبهم، مصالحة سلمية ومتناغمة بين الشرق والغرب. لثبت [...] أننا نخترع عالما جديدا ليس هو بالشرقي ولا بالغربي، بل نتاجًا لتكبيتهما، وتجاوزا لها".<sup>69</sup>

**تنظيم الإسلام في فرنسا يتعرض لمزيد الاعتراض**

ولأنه لم يتمكن من استباق تسلل الخطر الإسلامي ولم يستجب لطلب ممثلي الإسلام الهادئ المتعلق بغياب أماكن العبادة، وبتقدير أفضل للجالية المسلمة، التجأت مختلف الحكومات إلى اعتماد سياسة متذبذبة. إن بعث هياكل متعددة تحت الإكراه لتمثيل الإسلام في فرنسا هو الدليل على تلك الصعوبة التي تواجه مقارنة الإسلام في فرنسا، مقارنة الإسلام الفرنسي. وتعرض تكوين مجلس يمثل الإسلام في فرنسا، المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية

<sup>69</sup>) Interview d'Abdenour Bidar, «Il nous faut ni plus ni moins une nouvelle éducation musulmane », Oumma.com, 4 décembre 2006  
[oumma.com/Abdenour-Bidar-II-nous-faut-ni](http://oumma.com/Abdenour-Bidar-II-nous-faut-ni)

(CFCM)، إلى صعوبة أساسية: فالإسلام السنّي، بخلاف الكاثوليكية، لا ينتظم في إكليروس. ويؤدي المؤمن فرائضه بصورة فردية. إضافة إلى أن تطبيق الإسلام ليس متجانسا، فغالبية مسلمي فرنسا ينتمون إلى المذهب المالكي، وهو أحد المذاهب الأربعة، وهو المذهب المنتشر في المغرب العربي. وهؤلاء يخضعون للعقيدة ولا شيء غير العقيدة: الشهادتان، والصوم، والصلاة، والزكاة، والحج. في حين أن آخرين يلتزمون بأركان العقيدة ويزيدون، تحت تأثير الآخذين بقراءة ظلامية للإسلام، بابتداع طقوس تهدف إلى إعلان مظاهر الإيمان في الفضاء العمومي: الحية، نقاب، قميص. وتميل تطبيقات هؤلاء أكثر فأكثر إلى تدين مُنقَر. فعندما تُقصر الإسلام على مظاهر التمييز بين النقيّ والمدنّس، بين الحلال والحرام، يجد القرآن نفسه إذا مقصورًا على دور "قانون العقوبات" الهادف إلى التمييز بين الحسن والسيئ في السلوكات. وليس أخطر من تقليص الإسلام إلى مستوى ذلك البُعد في الفرز القسري بدون أي عمق ودون العودة إلى العقل. لقد جُوِّهَت الطريقة التي تم بها انتخاب المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية بالاعتراض الشديد، خاصة وقد اعتمدت مقياس عدد الأمتار المربعة المخصصة

لإقامة الشعائر الدينية. ولهذا السبب فإن قسمًا كبيرًا من المسلمين لا يعتبرون أنفسهم ممثلين رسميًا في مؤسسات الإسلام الفرنسي. وقد أصبح المجلس - عملياً - مرفوضاً أكثر فأكثر لا باعتبار ما يقوم به بل خاصة لما لا يقوم به. وبالإضافة إلى ذلك فإن طريقة تسييره لا تزال مطبوعة بالولاء الصارخ لمختلف بلدان المنشأ. كل ذلك بالرغم من وجود تقاليد استشراقية فرنسية زامت القرن العشرين ولا تزال حيّة، بفضل مختصين في الإسلاميات وعلماء متخصصون في التفسير، وعلماء عقيدة. أم يكن من الأجدر استشارتهم مسبقاً حتى تكون القرارات العمومية مُعزّزة بالوضوح ! هؤلاء يعرفون الإسلام بعيداً عن الصور الكاريكاتورية. ولأن المجلس الفرنسي للديانة الإسلامية كان عاجزاً عن استثمار الدور المنوط به، تكفلت وسائل الإعلام بنشر صورة وخطاب تقسيميين.

### إعلام مقابل إسلام

الصمت المفترض للفرنسيين ذوي الديانة الإسلامية لا يعدو أن يكون أكثر من تركيبة إعلامية. لمدة طويلة، لم يكن المدعوون إلى كبرى القنوات الإعلامية، ممن

يُفْتَرَضُ أنهم ممثلون للإسلام، إلا أولئك المنتمين إلى فئة "الأميين ذوي اللسان المزدوج": فهم لا يمثلون أحدا، اللهم إلا الصورة التي تريد وسائل الإعلام "تسويقها" تجاريا. علاوة على أن سعي وسائل الإعلام إلى الدفع ببعض "وجوه الجدل التلفزي"، على غرار إيريك زَمُور، إلى سدّة المشهد، رسّخ من فكرة أن لا وجود للإسلام خارج طابعه الراديكالي أو البائس. تماما كما لو قدّمنا سيفيتاس (*Civitas*)، وهي جمعية كاثوليكية أصولية تقوم رؤيتها السياسية على العمل على إعادة نظام المُلْكِيَّة في فرنسا، على أنها الصوت الرسمي للكاثوليك في فرنسا.

ولأنها تعيد تركيب التمثّلات أكثر منها العقول، فإن وسائل الإعلام تتحمّل مسؤولية ثقيلة. هي مطالبة بتقديم كشف حساب عشرين سنة من التعامل الإعلامي مع الإسلام، وخاصة في علاقة بالجهل المدقع الإسلاموفوبيا، وفي علاقة - خاصة - بالجهل المدقع لغالبية مواطنينا بهذه الثقافة وهذا الدين على الرغم من ساعات عرضه الطويلة في الإعلام. كان ابن عربي يقول عن الناس: "إنهم أعداء ما يجهلون". إن "صدام الحضارات" الذي بشرت به بعض العقول النائحة - هو في الحقيقة "صدام أشكال الجهل" -

قد تعزز بالترويج الإعلامي. وفي هذا السياق فقد كان بالإمكان أن يلعب المتصوفة، وهم من كبار العالمين بالإسلام في تعقده وفي خصوصيته، دورا في بناء خطاب مختلف.

### المسلمون في مواجهة أمر قضائي متناقض

إن غالبية مسلمي فرنسا لا يعتبرون أنفسهم يشبهون لا الجهاديين الذين رحلوا إلى سوريا، ولا النساء اللاتي تتظاهرن بلبس حجاب تام الشروط. ويمكن أن يعلنوا عن ذلك، وسبق لهم أن رفضوا تلك الممارسات باعتبارها مخالفة لأخلاقهم. غالبا ما يُفهمُ السكوت عن الانحرافات الفتوية على أنه تواطؤ غير معلن. وقد أثار استطلاع للرأي نُشر أخيرا في موقع صحيفة يومية كبيرة اهتمامًا واسعًا، وذلك لطرحه سؤال: "هل قام المسلمون بما يكفي بإدانتهم لقتل الرهينة الفرنسي؟"<sup>70</sup> وتفترض تلك الصيغة كون المسلمين يتحملون جزءا من المسؤولية من خلال سكوت مُدان.

<sup>70</sup>) [www.figaro.fr](http://www.figaro.fr). 25 septembre 2014.

وبالإضافة إلى ذلك فإن نقاشا غربيا انتشر بعد القيام بعريضة "ليس باسمنا"<sup>71</sup> وخاصة المقالة التي حملت عنوان "نحن جميعا فرنسيون قدرون".<sup>72</sup> يُدين ذلك البلاغ بشدّة، وقد أمضاه مسلمون من المجتمع المدني، اغتيال هرفي غوردال *Hervé Gourdel*. وقد جمع الحوار وجهًا لوجه الذين يُدينون تلك الجرائم بأولئك الذين لا يرون ضرورة تقديم مسلمي فرنسا لتبريرات تنأى بهم عما يقوم بعض أذعياء الإسلام في العالم. وفي الواقع فهم جميعا متفقون على الإدانة ولكنهم لا يتحملون الأوامر التي يتلقونها باستمرار والتي تعود بشكل من الأشكال إلى ضمان محاكمة الإسلام. عندما يصمت الفرنسيون أصحاب الديانة الإسلامية فاعلم أنهم بالضرورة متواطئون؛ وعندما يتكلمون يُمضون على ازدواجيتهم. وبوضع المسلمين آليًا في مواجهة هذا المأزق، فإننا نشجع على ظهور التضامن السخيف وترسيخه.

<sup>71</sup> حملة "Not in my Name" (ليس باسمنا) التي أطلقها

المسلمون في مواجهة المجازر التي يقوم بها تنظيم داعش

<sup>72</sup> ) *Le Figaro*, 25 septembre 2014.

## وزن المتغير الديني في السلوك الانتخابي

في حين يرتخي قسم من السكان، تطفو طبقة متوسطة نابغة من التنوع. وتملك النخب والطبقة الوسطى وعيا حادا بالدور الذي يمكن أن تلعبه عبر التجربة الديمقراطية. هم يقومون بتأكيد مواظمتهم أكثر من أي وقت مضى، فأُن "توجد، لا بد أن توجد" سياسياً".<sup>73</sup> لذا كانوا في الموعد في الانتخابات الأخيرة. وقد حاول تقرير لمركز البحوث السياسية في معهد الدراسات السياسية بباريس *Cevipof*<sup>74</sup> سنة 2011، وتقرير المعهد الفرنسي للرأي العام *Ifop* سنة 2013 فصل متغير الالتزام الديني في السلوك الانتخابي للمسلمين؛ وهذا القسم الذي يقدره المعهد الفرنسي للرأي العام بـ5 بالمائة من المسجلين في القوائم الانتخابية، والذي يتميز بكثافة التصويت لصالح اليسار، "يمثل 1.5 نقطة من الجسم الانتخابي

73) Abdelmalek Sayad, *L'Immigration ou les paradoxes de l'altérité*, De Boeck Université, 1992

74) كان يسمى منذ نشأته سنة 1960 بـ"مركز دراسات الحياة السياسية الفرنسية" Centre d'études de la vie politique française، وأخذ مختصر *Cevipof*. ورغم تغيير التسمية سنة 2003 إلى مركز البحث السياسية، إلا أنه حافظ على مختصره

[المترجم]

... وهي النسبة التي مكّنت فرنسوا هولاند من كسب الانتخابات<sup>75</sup> في 2012.

وفي المدة الأخيرة، خصّت مبرة جان جوراس هذا القطاع الانتخابي الاستراتيجي بباريس الكبرى بتقرير مفصّل.<sup>76</sup> وبحسب هذه الدراسة فإن "مسلمي اليسار" يتميزون بقيم محافظة حول المجتمع، وانتخابيا بنزوع قوي نحو الإمساك عن التصويت. وقد عمد صاحب التقرير إلى توخّي الحذر، وكأنه تفاجأ من جسارة ما توصل إليه هو نفسه، عندما أشار إلى الطابع "المتفجّر" لهذا الكشف السياسي. في حين أن دراسة قياس وزن الدين ليست مجالا علميا حديثا. لم يكن البعد الطائفي إذا هو المخيف، بل لونه الإسلامي تحديدا.

### خطر القوائم الانتخابية الطائفية

في الانتخابات البلدية الأخيرة في مارس 2014،

---

<sup>75</sup> ) Ifop, « Le Vote des musulmans à l'élection présidentielle », *Ifop Focus*, no 88, juillet 2013, p. 2 [www.ifop.fr/media/pressdocument/599-1-document\\_file.pdf](http://www.ifop.fr/media/pressdocument/599-1-document_file.pdf).

<sup>76</sup> ) Gilles Finchelstein, *Des musulmans de gauche ?*, Fondation Jean-Jaurès, note n° 207, 20 mars 2014 [www.jean-jaures.org/Publications/Notes/Des-musulmans-de-gauche](http://www.jean-jaures.org/Publications/Notes/Des-musulmans-de-gauche).



تسبب نفس أولئك الناخبين، وهم من صوت لمرشح اليسار في الانتخابات الرئاسية، بعثرة الحزب الاشتراكي وتراجعته حتى في معاقله التقليدية، ومنها باريس الكبرى على سبيل المثال، وذلك من خلال الإمساك عن التصويت بكثافة، أو تحويل أصواتهم إلى قوائم "مواطنة". وقد عبّرت الرسائل التي أرسلت إلى المكتب التنفيذي عن عقاب مزدوج: خيبة أمل من غياب النتائج ذات العلاقة بالقضايا الاجتماعية الاقتصادية من جهة، ورفض أجندا سياسية ركّزت بشكل مبالغ على قضايا توصف بالمجتمعية. وبشكل أوضح، كان هؤلاء يتربحون "الانتخاب حق للجميع" فلم يُمكنون إلا من "الزواج للجميع"، تطابقا مع أجدديات العدالة، مفهوم لم يلق تفسيراً كافياً، قبل أن يقع تحويل وجهته.

وباستعادة الخطاب السياسي لمنسوب الثقة فيه، ولقوة الميثاق الجمهوري، يمكننا التوصل إلى إضعاف المطالب الأكثر إشكالية. إن الطريقة الأمثل للتصدي للمتطرفين الدينيين والشعبيين ودعاة الانغلاق الطائفي، لا تكون إلا بمقاومة الأصول التي يركزون إليها، ما يحركهم وما يغدّبهم. يمثّل صعود إسلام احتجاجي ترجمة عن إضعاف الميثاق الجمهوري الذي

يمتطيه الشعبويون. لا يتعلق الأمر بمحاربة الأديان، بل بإعادة تفعيل الميثاق الجمهوري. إن مصداقية مؤسسات الجمهورية ومؤسسات اللائكية ستتجسد في القبول بالتعدد الذي يستوعب مسلمي فرنسا. ستصدم خارطة الطريق تلك، وهي بسيطة نظريًا، بالتشكّل الأيديولوجي للنظام المنحاز في فرنسا. ولترجمة ذلك بشكل مبسّط: فإن اليمين، في تقليد ذي نزعة قومية، لا يحبّ المهاجرين؛ أما اليسار المتشكّل في قالب الصراع مع الكنيسة، فإنه لا يحب المسلمين. وجب على الفرنسيين أتباع الدين الإسلامي إذن المحاربة على جبهتين: واحدة على اليمين لفرض شرعيتهم باعتبارهم فرنسيين وقدرتهم على التصرف طبقًا لذلك الاعتبار بقطع النظر عن أصولهم؛ والأخرى على اليسار لفرض مواظنتهم وحقهم في التفكير بحسب عقيدتهم.

كان بعث وزارة الهوية الوطنية والجدل الذي انطلق حول نفس المفاهيم ببادرة من الرئيس السابق نيكولا ساركوزي، كما حرج الرئيس فرنسوا هولاند وهو يدفع إلى مناقشة مسألة حق الأجانب في الانتخاب بالرغم من كونه كان من بين وعوده الانتخابية، وغياب التعيين في وظائف عليا في الدولة بالرغم من وجود

الكفاءات وامتلاك اليسار للقدرة على القيام بذلك، وأخيرا غياب سياسة عامة واسعة تهدف إلى محاربة كل أشكال التمييز، كل ذلك يبيّن، إذا اقتضى الأمر، عجز الطبقة السياسية على مقارنة هذه المواضيع في إطار الشفافية. وليس اليمين بعيدا عن ذلك، وهو الذي ساهم في تعقيد الوضع بإضفاء الطابع الإثني على الوظائف السيادية (لنتذكّر الفصل المتعلق بـ"المحافظ المسلم").

منذ زمن بعيد، كان المواطن ذو الديانة الإسلامية يشعر بأنه موضوع كذبة يتداول عليها اليسار واليمين مرّة بعد أخرى. وهي تصبح أحيانا موضوع تعديلات من قبل يسار يفتقد إلى ناخبين ويبحث عن تأجيج السخط، وأحيانا أخرى موضوع مقارنة للفرق لدى يمين حريص على تقديم ضمان لناخبيه الأكثر راديكالية وعلى إغراء اليمين المتطرف لدعمه. وإذا تواصل هذا الأمر فلا يجب أن نستغرب من ازدهار القوائم الطائفية أكثر فأكثر في الانتخابات القادمة.

والخطر اليوم مضاعف: فالراغبون في الجهاد، وهم أقلية ولكنهم شديداً التعصب، يمثلون خطراً على الأمن العام، في حين أن بروز "تصويت إسلامي

خالص" يحمل في طياته عداوات في صلب الجمهورية.

وبين الراديكالية والعزوف عن المشاركة في الانتخابات وقوائم يقال عنها قوائم مواطنة، هناك طريق واضحة أمام مسلمي فرنسا: طريق الجمهورية الاجتماعية واللائكية.

ولكن ذلك يعني، بالنسبة للأحزاب السياسية الكبرى، الاعتراف بالمواطنين ذوي الديانة الإسلامية كأعضاء في المدينة مكتملي العضوية، وبالتالي تحقيق وعودهم التي وعدوهم بها، تماما كما بقية الناخبين. إن عدم الالتزام بالتعهدات السياسية قاتلة الديمقراطيات.<sup>77</sup> كما يعني ذلك أيضا، من جهة المسلمين، فطنة كبيرة جدا ومتطلبات تجاه من يمثلونهم؛ يعود إليهم بالأساس، مهما كان موقعهم في المجتمع الفرنسي، المساهمة في "المعركة الثقافية".

وفي الحقيقة فإن المعركة ضد الإسلاموفوبيا - ومسلمو فرنسا يعلمون ذلك جيدا - لن تُخاض بالمظاهرات والحفلات الموسيقية وتوزيع الشارات والدبابيس. هم لم

---

<sup>77</sup> ) Bariza Khiari, « De quoi le vote musulman est il le nom ? », *Mediapart*, 17 avril 2014  
[blogs.mediapart.fr/edition/municipales-2014/article/170414/de-quoi-le-vote-musulman-est-il-le-nom](https://blogs.mediapart.fr/edition/municipales-2014/article/170414/de-quoi-le-vote-musulman-est-il-le-nom)

ينسوا أن عشرين سنة من الحركة الرسمية لمعاداة العنصرية قد جلبت جان ماري لوبان إلى الدور الثاني من الانتخابات الرئاسية . لا بد أن تكون المعركة ضد الإسلاموفوبيا هجوماً ببناءً، وليس موقفاً دفاعياً يعبر عن نفسه باحتجاجات التحريم وبالأحكام الأخلاقية. لا يمكن الانتصار في معركة معاداة الإسلاموفوبيا إلا إذا ما انخرط فيها مسلمو فرنسا أولاً.

لا بد أن يُعيدوا تملك النقاش، مع غيرهم، بأسلحة مخصوصة بصراع الأفكار: يجب أن تكون معركة معاداة الإسلاموفوبيا شأن المجتمع كله. وفي هذه الحال، لا بد أن يُصاحب ذلك خطابٌ يسمح بإعادة إعطاء معنى للوجود الإسلامي في فرنسا. ألا يجب على المتصوفة، وهم أقوياء بتقاليدهم الفكرية، الانخراط في تلك المعركة الثقافية، الموجهة للتعريف بإسلام روحاني حرّ ومسؤول؟

### المتصوفة: لإعادة اكتشاف إسلام الأنوار

هل يمكن القول إن أزمة الهوية الأوروبية هي نتاج للأزمة الاقتصادية والاجتماعية، أم لها ديناميكيتها الخاصة؟ التشخيص مهم هنا، لأنه يحدد مبدئياً معنى

النشاط العمومي ومشروعيته. وهل ما يهدد الوحدة الوطنية هو نزعة الانتماء إلى الجماعة المغلقة أم التمادي في مزيد من التمييز المرتبط بالإسلاموفوبيا؟ وحتى تكون "فرنسيا صالحا" هل يجب أن تقطع مع هوياتك "الموروثة"؟ هل الدين خصم الجمهورية؟ يملك المتصوفة، بما يقيمونه من جدل داخلي بين الإيمان والعقل، بين التراث والمعاصرة - ربّما - بعض عناصر الإجابة عن الأزمة الكبيرة للهوية التي تضرب فرنسا.

### من التشكيك إلى الاعتراف: مقاربة جديدة للهوية

إن استعادة الثقة في المثال الجمهوري يعني إعادة التفكير في صورة المواطن، التي شكّلت في البدء حاملاً للمشروع السياسي لأمة معاصرة وموحّدة. المواطن الفرنسي في القرن الحادي والعشرين ثريٌ بتاريخ سياسي جابته المناقشات والتعديلات والتحوّلات طولا وعرضا، ومنها معركة مناهضة الاستعمار ونتاجها التي طبعت أجيالا عدّة. فالافتراع، وكان مقتصرًا في الماضي على أصحاب

الدخل المرتفع<sup>78</sup> وعلى الذكور من بينهم، أصبح "كونيًا". وانطلاقاً من البعد الوطني، تحرر "في جزء منه" من الحدود، وذلك من خلال الحق في التصويت في الانتخابات المحلية لسكان أوروبا. وعكس التناؤم السائد يمكننا طرح فرضية كون توسيع محيط المواطنة هو من طبيعة الديمقراطية نفسها.

ولا بد من ملاحظة أن تلك الديناميكية قد اصطدمت بالضمور المفهومي لفكرة الهوية. وقد اقتنعت بعض العقول القلقة بأن الانتماء للإسلام لا يستقيم مع تعبيرة الاقتراع المواطني. وهذه الفكرة المسبقة العنيدة هي ما يُكبّل منذ ثلاثين سنة مشروع تمكين الأجانب من التصويت في الانتخابات المحلية على ضفاف التشريعات.

إن المشروع السياسي القائم على المواطنة لم يتغير: التمكين من شروط الوجود لديمقراطية مؤسّسة على المساواة القانونية بين الأشخاص. ففي زمن "القرية الكونية"، تُقاس فاعلية المثال المواطني بقدرته على خلق الروابط الاجتماعية في مجتمع لم يعد متجانسا

---

<sup>78</sup> *suffrage censitaire* هو اقتراع كان يشارك فيه حصراً من تتجاوز ضرائبه المباشرة مستوى معين، يكون عال جداً في العادة، وتلك العتبة تُسمى *cens* [المترجم]

ثقافيا بالمرّة. لا بد أن نعيد تعريف المواطنة المعاصرة حول مشروع يهدف إلى تمكين الرجل أو المرأة من حريتهما وضمائهما فكريا واجتماعيا، لا إلى اقتلاعهما من محيطهما، أو "فسخ ذاكرتهما الصلبة". من الضروري إذا مصالحة المواطنة مع تاريخ فرنسا المعاصر، وخاصة فيما يتعلق بإنهاء الاستعمار والهجرة.

إن التغيّي بالاندماج - ويُنظرُ إليه على أنه تبرؤ من الذات - تماما كما مدح التنوع - وغالبا ما يرنّ في الأذن كنداء مُتعالٍ للتسامح - هما بشكل من الأشكال خطابات عفا عنها الزمن. الخطاب السياسي مطالب بمصالحة مفهوم المواطنة مع مفهوم الشخص البشري. فهذا الأخير ليس نتاجًا مخبريا، ولد من جيل عفوي وبكرٍ من كل تاريخ، بل هو أمين على تاريخ عائلي وجماعي، تاريخ ثري بالمآسي والانتصارات.

في كتابه "الهوية والعنف"، ذكّر آماريتا سن باستحقاق إن الهوية هويات، وأنها ثمرة لإعادة التشكل، وإعادة البناء، ولاختيارات شخصية وأحيانا جماعية.<sup>79</sup> وفي

<sup>79</sup>) Amartya Sen, *Identité et violence*, Odile Jacob, 2010



لقاء صحفي مع باتريك فايل قال عن حقّ: "الجدل عقيم، فلا وجود لتضادّ بين "اندماج" و "تنوّع". يأتي على المرء منا لحظات يهفو فيها إلى أن يعامله الآخرون أمام القانون كما يعاملُ نُظراءه، وأحيانا أخرى يطلب التعامل معه من خلال الاعتراف بخصوصيته الثقافية".<sup>80</sup> يعني ذلك أن الرغبة في أن يكون الآخر ماثلا للذات أو مختلفا عنها بشكل راديكالي وجهان لنفس العملة: العنصرية.

وجدت مسألة الدين في فرنسا نفسها بين فكي كماشة التضخم الإعلامي لإسلام كاريكاتوري و/أو إسلام مارق من جهة، والضمور المفاهيمي حول فكرة الهوية من جهة أخرى. إن "المؤشر" في حالة المسلمين، كما هو عند بقية المواطنين، ولن يعجب ذلك كثير من الناس، لم يتوقف عند متغيّر الدين، فحسب. فالمسلمون يصفون أنفسهم بمقاييس أخرى. هم فقراء وأغنياء، عاطلون عن العمل وأجراء،

---

والكاتب عالم اقتصاد وفيلسوف هندي، ورأس بالخصوص معهد ترينيتي بجامعة كامبردج؛ كما تحصل على جائزة نوبل للاقتصاد عام 1988

<sup>80</sup>) Élise Vincent, «"Assimilation" ou "intégration", le sens politique des mots», Le Monde, 20 décembre 2010

موظفون وأصحاب أعمال حرة، ورياضيون وفنانون. إنهم ينشطون في المدينة. لهم مشاكل مماثلة لتلك التي نجدها عند بقية السكان. لا بد إذا من السهر على ألاّ يقوم بناء المواطنة السياسية على قاعدة دينية - فذلك سيكون قاتلا - بل على أساس القيم وفي إطار مواطنة نشطة تتشكل من حقوق وواجبات حول الميثاق الجمهوري، وتوفّر تعبيرة دينية هادئة وشخصية أكثر فأكثر، متناغمة مع الدنيائية، على أن ينأى المسلمون بأنفسهم من مُرتقَى مزدوج: تاريخ دون مستقبل، ومستقبل بدون جذور.

يملك متصوفة فرنسا وعيا كاملا بأن الروحانية التي يعيشونها ويحملونها، يمكن أن تكون عنصرا من عناصر الحل لأزمة الهوية، وخاصة بالنسبة لمسلمي فرنسا. ولأنهم يحرصون في نفس الوقت على عدم الظهور وعلى إظهار المعروف، ولأنهم متشبعين بعقيدة هادئة وسلمية، فهم يغرفون من التعليم الذي يتلقونه معنى الالتزام المواطني. ويمكنهم، مع غيرهم، المساهمة في إعادة توفير الكرامة والعزة المشتركة لجماعة حُرمت منها منذ زمن بعيد.

## التصوف: روحانية متصالحة مع قيم الدنيانية

يعتبر التصوف اليوم آخر المعامل في مواجهة الإسلام الراديكالي وانحرافاته الطائفية. إن القراءة التي يجذبها الإسلام الصوفي منفتحة على الآخر. هي لا تستبعد بل تحتضن؛ وهي لا تُلغي بل تستقبل؛ وهي لا ترفض بل تفتح. يجعل التصوف اختطاف الدين وتوجيهه نحو رؤية منحرفة أكثر صعوبة بما توفره الجماعة من ضمانات أمام إمكانيات الزيغ. والمتصوفة مقتنعون بذلك لدرجة اعتقادهم إن حالة الاضطراب والفوضى تمنع من ظهور البعد الروحاني. وبما أن الصوفي يعتقد إن الإسلام وتطبيقاته تنبع بالأساس من عوالم الإيمان الداخلي، فإنه لا ينخرط في تسييس الدين. وتمثّل أخلاقية الإسلام عندهم ضمانة لتطبيق مُسلمٍ منسجم مع احترام مؤسساتنا.

وتخشى التنظيمات الراديكالية التصوف لانخراطه في رفض ما تمثله تلك التنظيمات، لأن المتصوفة لم يتورّعوا يوماً، في تاريخهم الطويل، عن الرجوع إلى الإسلام الحق وتعليمه بعد وضعه في سياقه الصحيح. واليوم، يمكن أن يشكّلوا بديلاً في مواجهة من "خرجوا" عن الدين، وأتوا باسمه أكبر الفظائع. إن تبني السلطات العمومية للقول الصوفي - إذا ما قُدِّرَ

له الإفصاح عن نفسه - لا يعيق البتة موضوع المطالبة بمسائل المساواة والتصدي للعنصرية، ولكن يسمح برفع الغطاء الديني عنها، ويفصل المطالب السياسية عن المطالب الدينية، وهو ما يمثل المبدأ الضروري لنقاش هادئ.

### أن نجعل من فرنسا "هارفارد الإسلام"<sup>81</sup>

إظهار النقاشات والتساؤلات والشروخ وإمكانيات القطيعة يعني السماح بتداول المعلومة وبالاختيار عن قناعة تامة. وفي هذا السياق يعود للسلطات العمومية لعب دور غاية في الأهمية، لأن فرنسا تملك أسبقية جوار طويل جدا مع العالم العربي والإسلامي، عبر مبادلات تخترق القرون حول البحر المتوسط، والحقبة الاستعمارية، والهجرات... وبالنظر إلى ذلك التاريخ الثري والمتقلب، كان يمكن لفرنسا أن تكون "هارفارد الإسلام"، فضاءً رائدا يتألق منه البحث العلمي حول ذلك الدين وحضارته على الغرب كله. بيد أن البحوث الفرنسية في المجال تعبر عن نفسها في "خلية" لمصلحة العارفين من قبل متخصصين، في حين كانت

<sup>81</sup> العبارة تعود إلى عبد النور بيدار

في طليعة معرفة الإسلام في القرن التاسع عشر، مدعومة باستشراق عالم ومنتشر بين الناس بشكل واسع (لويس ماسينيون، جاك بيرك، فانسان مونتاي، لويس غارديه، ريجيس بلاشير، أندريه ميكيل، دومينيك شوفالييه ...) أو بعلماء خارج التصنيف مثل روني غينون.

ومن نتائج هذا العجز الظاهر ضرر مزدوج فكري واجتماعي. فكري لأن البحث الفرنسي في مجال دراسة الإسلام لا يحتل المكانة المفروضة عليه في العالم. واجتماعي لأن السكان ذوي الأصول المسلمة الذين يعيشون في بلدنا يضمّون اليوم عددا كبيرا جدا من النساء والرجال المثقفين، والحاصلين على شهادات عليا، وهم يترقبون خطابا حول الإسلام مختلفا تماما عما يسمعونه حاليا. لا همّ لهذه النخبة إلا جذب الإسلام نحو الأعلى، في مقارنة تقوم على الانفصال النقدي. وإذا ما اعتقدنا أن الجهل عدو للديمقراطية، فإن بعث كرسي في الكوليج دو فرانس، وهو مشروع أكاديمي تقرر منذ مدة، لا بد أن يتحقق بشكل عاجل.

إن الأعمال البحثية المهمة بإعادة تشكيل الفكر الإسلامي ضرورية جدا، وإلا فإننا سنشهد تلقينا

عقائديا دينيا رديئا ومهينا ولكن على نطاق واسع جدا. إن غياب المواجهة الفكرية أمر مؤسف حقا، خاصة وأنا عرفنا في السياق الإسلامي عديد الصراعات بين القدامى والمحدثين. فعلى سبيل المثال، "عندما قام الفارابي<sup>82</sup> (ت. 950)، في مدينته الفاضلة، بعرض إخضاع السعادة والسعي إلى الخلاص كمهمة إنسانية ممكنة فوق الأرض دون تقريب نجدة السماء، فإنه بذلك كان في غاية الحداثة. وعندما أوصى في حال التعارض بين الإيمان والعقل بتقديم الثاني والأخذ برأيه، فإنه يؤكد على شجاعته".<sup>83</sup> وكذا الشأن بالنسبة لابن رشد،<sup>84</sup> الذي يعتقد إن الحقيقة الدينية لا يمكن أن تعارض الحقيقة العقلية بأي حال من الأحوال. ولا يكون التعارض والجدل بين الأفكار إلا مفيدا لممارسة الاجتهاد حتى نكون في مستوى ضرورات العصر.

---

<sup>82</sup> الفارابي فيلسوف فارسي، ندين له خاصة بشرح على الجمهورية، وفهرسة لكتاب القوانين لأفلاطون.

<sup>83</sup> Entretien avec Ghaleb Bencheikh, « Un État moderne et démocratique est le garant du libre exercice du culte », *Liberté*, 12 juillet 2014.

<sup>84</sup> أبو الوليد ابن رشد (ت. 1198) هو أحد أكبر الفلاسفة

وعلماء الدين المسلمين

وفي نفس السياق، ولكن في الظاهر، فإن مقترحات أخرى تهدف إلى التصدي للجهل قد فشلت في ترك بصمتها. ففي سنة 2002، اقترح ريجيس دوبريه في تقرير قدّمه إلى وزير التربية أن تُدرّس الظاهرة الدينية في المدارس. كان ذلك سيساعد على معرفة أن الإسلام لا يقطع مع اليهودية ولا مع المسيحية، بل ينخرط في خط متواصل غير منقطع للرسالة التوراتية. وعض أن يؤسس ذلك الإجراء لنقاش بناءً، فقد أنتج جدالاً عقيماً. أما تعليم اللغات الأم، وهو مقترح جاك بيرك عالم الإسلاميات المشهور، فقد عرف نفس المصير.<sup>85</sup> وتترجم الضجّة الأخيرة التي أثّرت حول منشور كاذب يتضمن تعليم اللغة العربية في المدارس العمومية الهوة التي نحتاج إلى ردمها لمقاومة الجهل من أين أتى.

\*\*\*

إن أولئك الذين يصيحون بأن الإسلام غير قابل للذوبان في الجمهورية يخطئون مرتين: فمن جهة هم يعتمدون إسلام وسائل الإعلام، وهي طائفية المنزع

<sup>85</sup> ("المهاجرون في مدرسة الجمهورية": تقرير مجموعة تفكير يرأسها جاك بيرك في وزارة التعليم.

*L'Immigration à l'école de la République*, CNDP/ La Documentation française, 1985.

تهييجية المقاربة؛ ومن جهة أخرى، فإن البحث عن المعنى ضروري للمشروع السياسي. وللإجابة عن تخلص العالم من أوهامه، يعمل المسيحيون الاجتماعيون على البحث في المعنى. فبإدارة من جان بابتيست دو فوكو، أصدر هؤلاء "الميثاق المدني"<sup>86</sup> الذي يجب أن يُؤخذَ بعين الاعتبار أكثر فأكثر من قبل حُكَّامنا حتى يتمكنوا من بناء قاعدة التغيير الحقيقية، لا لبناء "عالم مثالي"، ولكن فقط نحو عالم أفضل. ويمكننا اختصار هذا الميثاق في العبارات التالية: يجب أن يحتل الإنسان الأولوية قبل النظام؛ يجب أن تُقدّم التوزيع على مجرد التملك؛ التفكير في المدى الطويل يجب أن يحتل الأفضلية على الاهتمام بالعاجل؛ المواطن قبل المستهلك؛ لا يجب إهمال الكيفي لحساب الكمي. ولأن المواطنين الذين يدينون بالإسلام يحملون إرثاً ذي نزعة إنسية عالية، فهم ينخرطون في غالبهم في هذه المبادئ، وهم متمسكون برؤية أكثر تضامنية للمجتمع. إن البحث عن المعنى - ونعني به أيضاً التقدّم - ضروري للمشروع السياسي. ووفاء لروح الإرث المحمّدي، في بُعد الروحي أو في مستوى إدارة شأن المدينة، فإن

<sup>86</sup>) [www.pacte-civique.org](http://www.pacte-civique.org)



المواطنة الحقّة بالنسبة للمسلم الصوفي تستمد جذورها من عمق الذات، والروحانية الحقّة هي تلك التي تتمثل في السلوك المواطني اليومي. إن تطبيع الإسلام هو اختبار مصداقية الجمهورية. يجب على ذلك التطبيع قبل كل شيء أن يأتي من السلطات العمومية. فهي من عليها فرض احترام المساواة الحقيقية، عبر مقاومة أنواع التمييز والإسلاموفوبيا، وعبر إعطاء الأولوية للمواطنة على الهوية. ولكن يجب أن يأتي ذلك التطبيع أيضا من المسلمين أنفسهم. عليهم بداية، أن يعيدوا تملك عجائب ثقافتهم وجمالياتها لإعادة توزيعها بشكل أفضل. يحمل تصوف الأمس واليوم ثلاثة آمال رئيسية: الأول هو أن الإيمان يتغذى بالعميقة كما بالروحانية النشطة؛ والثاني أن الإيمان والعقل لا يتعارضان، بل ينير أحدهما الآخر؛ والثالث هو أن تلك الروحانية، حتى تكون حية، لا بد أن تكون مؤشرا للمعنى، عبر تأسيسٍ لفعل الخيرات.

وفي هذا الباب فإن الفكر الصوفي ينشر إسلاما حرا، روحانيا ومسؤولا، يمكن من التعبير عن مواطنة حقّة، ضامنة للعيش المشترك. ولأن "الناس أعداء ما يجهلون"، فمن الضروري أن يروج المتصوفة، خارج

دوائر الطريقة، للسلوك، وهم في نفس الآن المؤتمنون عليه والفاعلون فيه. وأنا مقتنع تماما، كالمرحوم عبد الوهاب المؤدب، أن انخراط المسلمين المتصوفة في النقاش العام يمكن أن يهدئ من التوترات المتعلقة بالهوية، لدى بعض المسلمين كما عند جزء من الرأي العام، وأن يساهم بذلك في إطفاء الحريق الذي يتمدد في الجسم الاجتماعي.

## قيم الإسلام

3 قيم الإسلام

الإنسانية والإنسية  
في الإسلام

أحمد بووردان  
2015 أبريل

2 قيم الإسلام

القرآن،  
مفاتيح للقراءة

طارق أوبرو  
2015 أبريل

1 قيم الإسلام

التعددية الدينية  
في الإسلام،  
أو الوعي بالغيرية

إيريك جوفروا  
2015 جانفي

6 قيم الإسلام

الإسلام  
وقيم الجمهورية

سعد الخياري  
2015 جوان

5 قيم الإسلام

الإسلام  
والميثاق الاجتماعي

فيليب مولني  
2015 أوت

4 قيم الإسلام

التصوف:  
روحانية ومواطنة

باريزا الخياري  
2015 جوان

9 قيم الإسلام

الإسلام والديمقراطية:  
الأسس

أحمد الريسوني  
2015 نوفمبر

8 قيم الإسلام

النساء والإسلام،  
رؤية إصلاحية

أسماء المرابط  
2015 أكتوبر

7 قيم الإسلام

التربية في الإسلام

مصطفى الشريف  
2015 أكتوبر

11 قيم الإسلام

الشيعة والسنة:  
سلام مستحيل؟

ماتيو تيزيه  
2016 جانفي

10 قيم الإسلام

الإسلام والديمقراطية  
في مواجهة الحداثة

محمد بدّي ابو  
2015 ديسمبر

## Fondation pour l'innovation politique

### مؤسسة التجديد السياسي

ثناك تانك ليبرالي، تقدمي أوروبي

تقدم مؤسسة التجديد السياسي فضاء مستقلا من الخبرة الفنية والتفكير والتبادل، متوجهة نحو إنتاج الأفكار والمقترحات وتوزيعها. وهي تساهم في تعددية الفكر وتنمية الحوار العمومي ضمن توجه ليبرالي، تقدمي أوروبي. وتعطي المؤسسة الأولوية إلى أربعة رهانات كبرى: التنمية الاقتصادية؛ الإيكولوجيا؛ القيم؛ والرقمية.

يضع الموقع الرسمي [www.fondapol.org](http://www.fondapol.org) على ذمة الجمهور جميع أعماله. وتجعل منصتها المعلوماتية " Data fondapol " مُتاحة للجميع للولوج واستعمال المعلومات المُجمَّعة في مختلف مراحل الاستبيانات وبمختلف اللغات، عندما يتعلق الأمر بدراسة عالمية. وبالإضافة إلى ذلك فإن موقعنا الإعلامي " Trop Libre " يسلط نظرة نقدية يومية على الأحداث اليومية وحرّك الأفكار. " Trop Libre " تقترح أيضا يقظة مستمرة لمتابعة تداعيات الثورة الرقمية على الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وذلك عبر تخصيص خانة خاصة في الموقع يحمل تسمية " Renaissance numérique " (الإحياء الرقمي) وكانت تسمى سابقا: Politique 2.0. مؤسسة التجديد السياسي مؤسسة غير ربحية، وتخضع لنظام الخدمة العامة. وهي مستقلة ولا تخضع في تمويلها إلى أي حزب سياسي. مواردها عمومية وخاصة، وتتمتع بدعم من الشركات ومن الخواص، وبشكل رئيس من تنمية نشاطاتها.

## La Fondation pour l'innovation politique

Les données en open data

[data.fondapol.org](http://data.fondapol.org)

Le site internet

[www.fondapol.org](http://www.fondapol.org)

Les médias

[fondapol.tv](http://fondapol.tv)



LinkedIn



Une voix libérale, progressiste et européenne

11, rue de Grenelle  
75007 Paris – France  
Tél. : 33 (0)1 47 53 67 00  
[contact@fondapol.org](mailto:contact@fondapol.org)